15 em Année No. 745

Lundi — 13 — 10 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٤٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٦٦ — ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

أســـاطير الآخرين

للأستاذ عباس محمود العقاد

« .... الزهاوى يعتقد أن الله هو الأثير

ما لهيكل الأكوان إلا إلـه واحد لا يزول وهو « الأثير »

أرجوا أن أقرأ رأيكم فى ذلك على صفحات الرسالة أو الهلال وأشكرك سلفاً ... »

موصل . عراق — لؤى النورى

***

لا أدرى ماذا قصد الزهاوى فى هـذا البيت بكلمة الإله وماذا قصد بكلمة الأثير

فإذا كان يقصد بالإله الأكوان خالق الأكوان فليس فى جميع التعريفات التى عرّفوا بها الأثير ما يسوّغ نسبة الألوهية إليه ، وإنما يجوز أن يسمى الأثير بالمادة الأولى — أو الهيولى — على رأى الأقدمين — فى بعض تلك التعريفات

ولم يثبت للأثير وجود فضـلا عن أن يقال أنه موجـد الوجود ، وخالقه الوحيد !

فهو فرض عقلى عند الرياضيين والطبيعيين :

فرضوه ليعللوا به ما يستعصى عليهم تعليله ، كانتقال الجاذبية بين الكواكب ، وانتقال الضوء فى الفضاء

وقال به « نيوتن » قديماً لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يجذب الكوكب كوكباً آخر فى هذا الفضاء مع امتناع الواسطة بين الكوكبين ، وقد سمى هذه الواسطة فى بعض كلامه بالروح Spirit ليستريح إلى تعليله للجذب والانجذاب

وقال به المحدثون ليعللوا به مسير الضياء فى أجواز الفضاء

وقال ماكسويل العالم الطبيعى الكبير « إن أنواعاً من الأثير اخترعت لتسبح فيها الكواكب ، ولتنشأ منها أجواء كهربائية ودفعات مغناطيسية ، ولتنقل الإحساس من جانب الجسد إلى جانب آخر ، حتى ازدحم الفضاء مرات بهذا الأثير »

وعقّب جيمس جينس على ذلك فى كتابه عن الكون الخفى فقال : وخلاصة ذلك أن لدينا أنواعاً من الأثير بمقدار ما لدينا من مسائل غير محلولة فى علم الطبيعة !

والذى يبدو لنا أن هذه الفروض قد بنيت على خطأ فى فهم الفضاء أو المكان . لأنهم اعتقدوا أن الفضاء خلاء ، وأن الخلاء عدم ، فوجب أن يملأوه بالأثير

وقد اتفق جلة الفلاسفة الأقدمين على أن الفضاء ليس بخلاء أو ليس بعدم ، لأنه يقاس ويقدر ، ولأنه يحتوى الموجودات يقال شبر من الفضاء ، وذراع من الفضاء ، ولا يمكن أن يقال أن عدماً أطول من عدم ، وأن هـذا العدم أقل من ذاك ونحن نعيش فى الفضاء ويحتوينا الفضـــاء ، والمعدوم

لا يحتوى الوجود

فالفضاء ليس بعدم وليس بخلاء

وكان أسلم من فرض الأثير أن يقال أن مادة الفضاء لا تزال قيد البحث والاستفسار . فإن ذلك أسلم علماً وعقلا من الجزم بنفي الحركة في الفضاء ، ما لم يكن مملوءاً بما يسمى الأثير

وقد حاولوا أن يجدوا للأثير هذا خاصة تميزه من الفضاء بحركة أو كثافة أو تقدير فلم يجدوا تلك الخاصة في تجربة واحدة من تجاربهم الكثيرة

فليس للأثير سرعة تزداد أو تنقص بمرور الأجسام فيه ، وليس في الحالات التي تعرض للمادة كلها حالة تتناوله بشيء من التغيير !

ومؤدّى هذا أن الأثير والفضاء مترادفان ، فلا فرق بين قولك أن الضوء يسير في الفضاء وقولك أنه يسير في الأثير

وقد نبه اينشتين إلى ذلك فقال في تعقيبه على نظرية لورنتز Lorentz عن المغناطيسية الكهربائية والأثير إنما هم اسمان لمسمى واحد !

وقد انتهى الرأى باينشتين إلى تقرير فرضه الجديد الذى يلاقى به مذهب الأقدمين في حقيقة الفضاء ، وهو فرضه المشهور عن الجوهر الفضائي أو جوهر الفضاء Space Substance

فألقى في شهر يونية من سنة ١٦٣٠ محاضرته التاريخية بجامعة نوتنجهام ، وأجمل فيها أطراف هذه النظرية التي يوشك أن يستخرج منها العلماء صلة علمية بين تركيب الفضاء وتركيب المادة ، وهي ليست بالصلة البعيدة بعد ما عرف عن حركة الضوء في الفضاء ، وعن رجوع المادة كلها إلى الإشعاع

ولا نعتقد أن الأستاذ الزهاوى كان يمحص ما يسمعه عن الأثير وأقوال العلماء فيه ، وفي أمثاله من الفروض العلمية

ومن أمثلة ذلك أنه يقول في رسالة نشرت له حديثاً في مجلة الكاتب المصري أن « اينشتاين يحسب أن الفضاء خاصة من خواص الجسم ثم يدعى أنه عدم محض ، والمشاهد أن الفضاء يقاس بالمتر والأقدام ويطول ويقصر بين سديم وآخر وشمس أخرى ، والشمس وسياراتها على التفاوت فكيف يقاس العدم ؟»

ولا ندرى أين قال اينشتين أن الفضاء عدم . وإنما المعروف أن مذهب النسبية يعلل انحناء الضوء بالقرب من الأجرام السماوية بانحناء الفضاء نفسه ، فكيف يقول بعدم الفضاء من يقول بانحنائه ، ثم يقول بأنه جوهر لعله أصل الجواهر جمعاء .

وقد أشار الزهاوى قبل ذلك إلى مذهب اينشتين في هذا فقال أنه : « فتح باباً جديداً في الفلسفة جعل العلماء يفكرون فيها تعليلا لغوامض الكون على أن أكثر قضاياها لا يرضى لمنطق وأن أرضى الرياضيات على زعمه . أما كون النور في قرب الأجرام يسير في خط منحن عليها فصحيح ، ولكنى لا أرى أن السبب هو انحناء طريقه في الفضاء ... »

وقد كان خليقاً بما رواه عن اينشتين أن يصحح فهمه لمذهبه في الفضاء وفي الأبعاد على العموم ، ولكننا نحسبه طالع بعض كلامه عن نسبية الأبعاد ونسبية السرعة فيها فخطر له أن القياس النسبي ينفي الوجود الحقيقي ، ويجعله كله مسألة تقدير واختلاف ...

وإنما كان اينشتين يفرق بين تقدير الفضاء في الهندسة الاقليدسية وتقدير الفضاء في رأى ديكارت وتقدير الفضاء إذا أخذ فيه بمذهب البعد الرابع، وهومذهب اينشتين نفسه في المكان والزمان

وعلى هذا القياس ربما طالع الأستاذ الزهاوى بعض ما كتب عن الأثير وامتلاء الأكوان به فقال إنه هو الوجود الثابت في جميع هذه الأكوان ، وأن ما عداه من الوجود فرض من فروض الأديان

وقد تخلى عنه الأثير آخر الأمر فإذا هو الفرض الذى ابتدعه الخيال ، وإذا به في رأى العلماء هو والفضاء سواء

وغاية ما يقال إذن في هذا الإله الذى خلقته فروض الخيال أنه أسطورة من أساطير الآخرين ...

عباس محمود العقاد

فعـــــلاء

للاســــتاذ « السهمى »

أشكر لسيدى الكاتب الألمى والأستاذ الباحث المتفنن السيد على العمارى تشريفه إياى بما أمرنى به وإحسانه إلى بالبامى من عطفه على وقوله فىَّ نوباً قد ضمت فيه ولم أبن ثم أقول :

لا حيرة بعد اليوم (إن شاء الله تعالى) ولا قلق ، ولا بأس على (فعلاء) ولا على شقيقها (أفعل) ولا على جمعهما ، فهما كما هما ، وجمعهما كما أعربت العربية ونطق (الكتاب) وطريقة (الكتاب) هى المثلى ، « وكلمة الله هى العليا » « ولله المثل الأعلى » وكما أملى (الخليل) على خريجه أو بصّر، فقيد (أبو بشر) ذلك بالكتاب فى (الكتاب)[١] وكما قال (أبو العباس) فى (كامله) .

قال (عمرو) فى (البحر) : « وأما أفعل إذا كان صفة فإنه يكسر على فعل ... وذلك أحمر وحمر وأخضر وخضر وأبيض وبيض وأسود وسود ... والمؤنث من هذا يجمع على فعل وذلك حمراء وحمر وصفراء وصفر... »[٢] .

وقال (محمد بن يزيد) فى (الكامل) الذى لم يتنقصه الدهر. وسأروى قوله بكماله على طوله حيث[٣] هو الحجة التى تشبث بها مانع (فعلاء) وليس له فيه أقل متشبث ، قال :

« قال نبهان بن عَكىّ العبشمى :

يُقر بعينى أن أرى مَن مكانه ذُرا عقدات الأبرق المتقاود[٤]

وأن أرد الماء الذى شربت به سليمى وقد مل السرى كل واجد[٥]

وألصق أحشائى ببرد ترابه وإن كان مخلوطاً بسم الأساود

(١) (الكتاب) معناه كما نفهم اليوم وكما تقول الفرنج(Livre) مولد

(٢) وقال : وأما الأصغر والأكبر فأنه يكسر على أفاعل ، ألا ترى أنك لا تصف به كما تصف بأحمر ونحوه ... فلما لم يتمكن هنا فى الصفة كتمكن أحمر أجرى مجرى أجدل وأفكل كما قالوا : الأباطح والأساود حيث استعمل استعمال الأسماء .

(٣) حيث هنا معناها مولد .

(٤) (الابرق) حجارة يخلطها رمل وطين (المتقاود) المنقاد المستقيم (المبرد) .

(٥) واجد : من الوجد وهو الحب الشديد (المرصفى) ورُوى كل واحد وهو المنفرد فى السير المتوحد به ، وروى كل واخد وهو من الوخد

... بسم الأساود : يريد أسود سالخ[١] ، وجمعه على أساود لأنه يجرى مجرى الأسماء ، وما كان من باب أفعل اسماً فجمعه على أفاعل نحو أفكل[٢] وأفاكل ، والأكبر والأكابر وكذلك كل ما سميت به رجلا تقول : أحمد وأحامد وأسلم وأسالم . فإن كان نعتاً فجمعه على فعل نحو أحمر وحمر وأصفر وصفر ولكن أسود إذا عنيت به الحية وأدهم إذا عنيت به القيد وأبطح إذا عنيت المكان المنبطح وأبرق إذا عنيت به المكان مضارعة للأسماء لأنها تدل على ذات الشىء وإن كانت فى الأصل نعتاً ، تقول فى جمعها الأباطح والأبارق والأداهم والأساود ، فإن أردت نعتاً محضاً بتبع المنعوت قلت مررت بثياب سود وبخيل دهم ، وكل ما أشبه هذا فهذا مجراه » .

قوله (إن أردت نعتاً محضاً) يقصد به مثل أسود وسوداء وأدهم ودهماء وأبيض وبيضاء وأحمر وحمراء[٣] لا مثل الأسود للحية والأدهم للقيد والأبطح والأبرق المضارعة للأسماء أو التى أصبحت تعد فى الأسماء « تعينت لها الاسمية إذ فقدت الوصفية » فهذه ليست بنعت محض حتى يسوغ لها أن تجمع على (فعل) إن هذا الجمع للنعت المحض الذى لا رائحة للاسم تشم فيه .. وأما التى نقلت من الوصفية إلى الاسمية فجمعها (أفاعل) لأنها ليست من النعت المحض ولا ينظر إلى أصلها وإن كان أصلها نعتاً وإنما يلتفت إلى ما قد حصل ...

وقول المبرد هذا هو مثل قول سيبويه ، وهو القاعدة فى هذا الجمع ولا منع فيه لوصف مجموع بمفرد ، ولا وجوب وصف مجموع بجمع ولا جوازه ، وما أظن المبرد زاد شيئاً فى (المقتضب)[٤] على ما قاله سيبويه وقاله هو فى الكامل .

هذه هى قصة القضية فى فعلاء وجمعها فهل للمولد — إذا ثبت عنده أن العرب لم يصفوا الجمع بذلك المفرد — أن يقيس وصف جمع على وصف جمع ، وكم قاس فى اللفظ والتركيب وكم

(١) سالخ . نعت به الأسود لأنه يسلخ جلده كل عام ولا توصف به أنثاه (المرصفى) .

(٢) أفكل : اسم لرعدة من برد أو خوف ولا فعل له (المرصفى).

(٣) تذكرنى حمراء بما فى النهاية : وفى حديث على قيل له غلبتنا عليك هذه الحمراء يعنون العجم والروم ، والعرب تسمي الموالى الحمراء

(٤) قال الزمخشرى : المقتضب لأبى العباس المبرد ، ولله دره من كتاب بعد (الكتاب) قلت : « وهو فى دار الكتب المصرية عمرها الله « ستة مجلدات مأخوذة بالتصوير الشمسى ».

ولد ، وثلاثة أرباع اللغة مولد ، ولا سيما[1] إذا لم تجيء نصوص أئمة تمنع .

رأينا الجاحظ فى (الحيوان)[2] (ج ٢ ص ٢١٢) والمسعودى فى (المـــروج)[3] — ج ١ ص ٣٥ — والزمخشرى فى (الكشاف) — ج ٢ ص ٣٨٣ — والتبريزى فى (شرح الحماسة) فى الطبعتين — ج ٤ ص ١٢٠ ج ٤ ص ٢٤٤ — والصاحب فى إحدى رسائله فى (إرشاد الأديب) والمعرى فى جريدة كتبه فى (الارشاد) وفى (رسائله) وفى (نهاية الأرب) وابن سيده فى (المخصص) وابن طولون فى (اللمعات البرقية فى النكت التاريخية)[4] — ص ٦٦ — رأينا هؤلاء القوم يصفون وصفهم ، فاستدل المستدل على التجويز ، وقيل : هؤلاء جلهم أئمة ، والأئمة يُتبعون . وإذا حرف نسخ أو طبع أقوالهم فهل حرفت كلها جمع أو جماء ؟

أنا استبعد كثيراً التحريف فى كلام ابن سيده وفى (أيادى بيضاء) إن (المخصص) محقق ، وضبط الشنقيطى إياه محكم ، وعبارة المعرى رواها القفطى فى (إنباه الرواة على أنباه النحاة)[5] وقد طير همزة بيضاء ناسخ عصرى لكتاب (الإنصاف والتحرى) نجاءت (أيادى بيضا) فهل كان هذا الناسخ ممن يتقززون من الهمز فقصر أو كان مستعجلا أو طوعت له نفسه أن يصحح كلام أبى العلاء ؟.. و (الزهراء والجزاء والأرزاء) هن من مظاهرات (بيضاء) وما جلب تينك السجعتين فى إعتقادى إلا هى .

وأوقن كل الإيقان أن أبا العلاء وصاحب المخصص لم يقولا (زهراء) و (وخضراء غبراء) إكراماً للجوار جوار (مثل) و (مضيئة) فما كان هذا الإمامان يعرفان هذه (الفتوى اللغوية العصرية) هذا الكلام المفتلت ، وان يعثر على مثله عاثر عند أحد من المتقدمين ولا عند أحد من المتأخرين ، أنه كلام لفته صاحبه

(١) هل قول الحريرى (لاسيا وقد أغدف جنح الظلام) تركيب مولد ؟
(٢) حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام محمد هارون .
(٣) ضبطه وعلق عليه الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .
(٤) فى (مكتبة القدسى فى القاهرة) .
(٥) نسخة مصورة بدار الكتب المصرية نقلت منها سيرة الشيخ فى كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء)

لفتاً ، والعلم ليس بشموذة[1] أو مخرقة[2] .

من مشاهير[3] المصريين الذين وصفوا الجمع بفعلاء المفردة الأب أنستاس مارى الكرملى فى مجلته (لغة العرب) كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى جواد فى مقالة فى (مجلة المجمع العلمى العربى) الغراء .

والشيخ إبراهيم اليازجى فى مجلته الضياء (س ١ ج ٣) قال : « .. وبوده أن يكون فداء عن أياديهم البيضاء وأن لاتعدم الآداب نفحات مكارمهم الفيحاء » .

والأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى إحدى مقالاته فى (الرسالة) الغراء قال : « ... فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم تجمل هدير البحر كأنه تسبيح ، وترد الأمواج نقية بيضاء كأنها عمائم العلماء » .

وقد كتب الأستاذ الرافعى هذه التعليقة على (بيضاء) :

« يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ وأن الصواب أن يقال (بيض) ولسنا من هذا الرأى وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه لغفلتهم عن السر فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد ومرة فى الوصف بالجمع » .

يظهر أن المرحوم الرافعى لم يتأمل قول المبرد فى الكامل ملياً فجار على هـذا المسكين البرىء وغلطه وجهله . وكلام (أبى العباس) هو ما رويته آنفاً وما كان هذا الإمام فيه إلاموضحاً كيفية[4] جمع مكسر ومقرراً قاعدته ، ولم يغلط فى توضيحه وتقريره ، ولن يجسر ناح أن يخالفه فيما قال .

لقد كان (أبو السامى) يستعجل فى بعض الأوقات فى رده ويكربل ويكرمل فى نقده ...

إن أول من نبه على ما توهمه خطأ هو الأستاذ (كرنكو) العربانى الجرمانى (رب ذلك الجمع) وهو الذى خطأ الأب أنستاس ونشر التغليط فى مجلة (لغة العرب) ثم كانت تلك الفتنة فى بلاد العرب ...

السهمى

(١) فى اللسان والتاج : قال الليث : الشعوذة والشعوذى مستعمل ، وليس من كلام أهل البادية . وفى الأساس : فلان شعوذى ومشعوذ ومشعبذ ... وتقول : رأيته يعوذ ويشعوذ
(٢) فى الصحاح : وأما المخرقة فكلمة مولدة . وفى التبريزية الحريرية : ... أكذب من أبى ثمامة حين مخرق باليمامة .
(٣) جمع مولد .
(٤) الكيفية كلة مولدة .

من شوارد الشواهد

للأستاذ على الطنطاوى

سألنى سائل عن بيت :

فما كان قيس هلكُهُ هلكَ واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

المروى فى عدد الرسالة الأخير، لمن هو ؟ فقلت : لعَبْدة بن الطبيب ، واسم الطبيب يزيد بن عمرو ، وهو شاعر مخضرم معروف من قصيدته التى يرثى بها قيس بن عاصم المنقرى وقبله :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما

تحيّةَ من غادرته غرض الردى ... إذا زار — عن شحط[1] — بلادَك سلّما

ففرح بذلك فرح من كان عنده لقيط فعرف نسبه ، وكنت قد واليت البحث عن أمثاله من الأبيات الشاردة — التى لا تكاد تجد أديباً ولا متأدباً لا يتمثل بها إذا كتب أو خطب ، وقلّ فى المتأدبين من علم أنسابها ، وعرف أصحابها — حتى اجتمع لى طائفة منها صالحة ، تملأ مجلدة لطيفة ، فرأيت أن أنسب بعضها فى الرسالة .

من ذلك :

١ — لا تَنْهَ عن خلق وتأتىَ مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

للمتوكل الليثى ، وهو شاعر إسلامى ، كان يمدح معاوية وابنه يزيد . من قصيدته التى يقول فيها :

للغانيات بذى المجاز رسوم ... فببطن مكة عهدهن قديم

فبمَنْحر البُدْن المقلّد من منى ... حلل[2] تلوح كأنهن نجوم

٢ — أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

لمسكين الدارى وهو ربيعة بن عامر بن أنيف ، قدم على معاوية وسأله أن يفرض له ، فأبى ، فخرج من عنده وهو يقول :

أخاك أخاك ... (البيت) .

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح

وما طالب الحاجات إلا مغرر ... وما نال شيئاً طالب كنجاح

٣ — العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه المقاله

لأبى الأسود الدؤلى . وقبله :

أعصيتَ أمر أولى النهى ... وأطعت أمر ذوى الجهاله

أخطأت حين حرمتنى ... والمرء يعجز لا محاله[1]

٤ — فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان صديقاً للحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وكانا يرميان بالزندقة ، فجرى بينهما شىء فقال له :

وإن حسبنا كان شيئاً مُلَفَّقاً ... فكشّفه التمحيص حتى بدا ليا

أأنت أخى ما لم تكن لى حاجة ... فإن عرضت أيقنت أن لا أخاليا

فلا زاد ما بينى وبينك بعد ما ... بلوتك فى الحاجات إلا تماديا

فلست براء عيب ذى الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا ... (البيت) .

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا[2]

٥ — فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزّق

لشاس بن نهار من قصيدة قالها لعمرو بن المنذر بن امرىء القيس بن النعمان وهو عمرو بن هند[3] ، وهند أمّه عمة امرىء القيس الشاعر ؛ لما همّ بغزو قومه عبد القيس ، فلما سمعها تركهم ، وتمثل به عثمان يوم الدار . وبه سمى الممزق (بالفتح) وقيل بالكسر والتحقيق أن الممزق (بالكسر) شاعر آخر متأخر يعرف بالممزّق الحضرمى .

٦ — كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يَضْرها وأعيا قرنَه الوعل

---

(1) الشحط : البعد (2) ج حلة بالكسر وهى المحلة .

(1) لا محالة أى لابد (والبد الناس والمخلص) ، والذى أحفظه (والمرء يعجز لا المحالة) والمحالة الحيلة وهو من أمثال العرب ، وأنشد فى اللسان لأبى دواد

حاولت حين حرمتنى ... والمرء يعجز لا المحاله

والدهر يلعب بالفتى ... والدهر أروغ من ثعاله

(2) روى هذا البيت القالى فى ذيل الأمالى لغيره (ص ٧٥) أميرية

(3) وهو المحرق (الثانى) وهو الملقب بـ (مضرط الحجارة)

للأعشى[١] من قصيدته التى مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وقبـله :

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا

ولست ضائرها ما أطت الإبل[٢]

تغرى بنا رهط مسعود وإخوته يوم اللقاء فتردى ثم تعتزل

ومنها البيت المشهور :

قالوا: الطراد! فقلنا: تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ

٧ — عقم النساء فلم يلدن شبيهه

إن النساء بمثـله عقم

لأبى دهبل (وهب بن زمعة) الجمحى . مدح معاوية ومدح ابن الزبير وولاه عملا فى اليمن ، قاله فى ابن الأزرق ، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم

وبعده :

نزر الكلام من الحياء تخاله ضمناً[٣] وليس بجسمه سقم

٨ — وكنا كندمانى جذيمة[٤] حقبة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

لتمم بن نويرة من قصيدته المعروفة فى رثاء أخيه مالك وبعده:

فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

وتمثلت بهما عائشة لما وقفت على قبر أخيها عبد الرحمن .

٩ — وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك فى الدلاء

لأبى الأسود الدؤلى ، قاله لابنه أبى حرب لما قعد عن الكسب وقال : رزقى يأتينى ، وبعده :

تجئك بمائها يوماً ويوماً تجئك بحمأة وقليل ماء

١٠ — يا ربة البيت قومى غير صاغرة

ضمى إليك رحال القوم والقربا

(١) وفى (المؤتلف والمختلف) للآمدى ذكر لسبعة عشر شاعراً كلهم يعرف بالأعشى ، وإن أطلق الاسم انصرف إلى الأعشى الكبير ميمون

(٢) الأثلة الأصـل ونحت أثلته قال فى حسبه ، وأطت صوتت وفى حديث أم زرع (فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط) أى خيل وإبل .

(٣) الضمن الزمن وزناً ومعنى ، والضمانة الزمانة .

(٤) جذيمة (كسفينة) الأبرش ابن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ملك الحيرة وأخباره مع الزباء وتديمه معروفة مشهورة . وحسب قوم أن الزباء هى زينب (زنوبيا) ملكة تدمر ، وليست بها ، وأظن أن قصة الزباء مصنوعة موضوعة .

لمرة بن محكان ، شاعر إسلامى مقل ، يعد فى الأشراف الأجواد

وبعده :

فى ليلة من جمادى ذات أندية[١]

لا يبصر الكلب من ظلمائها الطُنُبا

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا

قالوا ، وكان الضيف يستبقى معه سلاحه مخافة البيات ، فهو يقول لها ، ضمى سلاحهم إليك فهم عندى فى أمان .

١١ — عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى

لعدى بن زيد العبادى ، من قصيدته التى مطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ورماك الشوق قبل التجلد[٢]

١٢ — أريد حياته ويريد قتلى .

وتتمته : عذيرك[٣] من خليلك من مراد .

من قصيدة قالها عمرو بن معد يكرب لقيس بن مكشوح المرادى ، (قالوا) وتمثل به على بن أبى طالب لما رأى عدو الله عبد الرحمن بن ملجم المرادى .

١٣ — إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

لعمرو أيضاً من قصيدته التى مطلعها :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

١٤ — ألا ليت اللحى كانت حشيشاً

فنعلفهـا خيـول المسلمينا

لابن مفرغ الحميرى ، واسمه يزيد بن ربيعة ، شاعر إسلامى أولع بهجاء آل زياد بن أبى سفيان ، وهو جد السيد الحميرى ، قاله فى عباد ابن زياد وكان عظيم اللحية .

١٥ — وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا

وما فى إلا تلك من شيمة العبد

كذلك هو على ألسنة الناس ، وروايته :

وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

للمقنع الكندى وهو محمد بن ظفر بن عمير وسمى المقنع لأنه كان لجماله يخاف العين فيتخذ اللثام ، شاعر إسلامى مقل ، معدود

(١) جمع ندى على الشذوذ لأنه (فى القياس) جمع لما كان ممدوداً مثل كساء وأكسية (٢) ويروى البيت لطرفه

(٣) العذير : النصير والعاذر وهو منصوب بتقدير الفعل (اطلب) وقد نسبه فى اللسان لعلى بن أبى طالب وإنما تمثل به على .

في الأجواد والأشراف ، والبيت من قطعة له هي :

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
أسدّ به ما قد أخلّوا وضيّعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

إلى أن قال :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيّعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمرّ بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا[1]
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وليسوا إلى نصري سراعاً وإن هم دعوني إلى نصر أتيتهم شدّا
لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف .. (البيت)

١٦ — تمتع من شميم[2] عرار نجد فما بعد العشية من عرار

للصمة بن عبد الله القشيري ، شاعر إسلامي غزل مجيد ، من أبياته المعروفة ، وقبله :

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار

وبعده :

ألا يا حبذا نفحات نجد وريّا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجداً وأنت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وروي : غبّ القطار . وروي : شهور قد مضين .

١٧ — كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(منسوب) لمضاض بن عمرو الجرهمي[3] ، من قطعة (زعموا أنه) قالها يتشوق بها إلى مكة لما أجلت خزاعة قومه عنها ، وبعده :

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
وأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك بالناس تجري المقادر
فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة كذلك عضتنا السنون الغوابر
وبدلنا ربي بها دار غربة بها الذئب يعوي والعدو المكاشر
فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر

١٨ — وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر .

لأعرابي ، نظر إلى امرأته فرآها تتجمل وهي عجوز ، فقال لها :

عجوز ترجّى أن تكون فتية وقد لحب[1] الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار سلعة أهلها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

فأجابته ببيتين ، وجمت عليه نسوتها فضربنه

علي الطنطاوي

(١) من أمور الجاهلية زجر الطير ، والتفاؤل بها أو التشاؤم (إن طارت يميناً أو شمالا) ، وهو السانح والبارح ، وقد أبطل ذلك الإسلام فيما أبطله من ضلالات الجاهلية .

(٢) الشميم كالشم . والعرار : نبت في البادية طيب الرائحة

(٣) وما هذه لغة جرهم — ولا هذا شعرها إن كان لها (في عربيتنا هذه) شعر .

(١) أي ذهب لحمهما ، ورجل ملحوب قليل اللحم .

هزيمة الكوليرا !

للدكتور مصطفى الديوانى

أثبتت محنة الكوليرا الأخيرة شدة تعلق الانسان بالسلامة وطول البقاء . فهذه الاستفهامات التليفونية التى توجه إلى طبيب العائلة — والتى لا تقف عند حد — تملأ الطبيب ثقة بنفسه وغروراً بمركزه كحصن الأمان يلجأ إليه عند الملمات ومنطقة النجاة تلقى للتائه فى اليم الخضم ليصل بوساطتها إلى الأرض الطيبة عساه أن يدب عليها من جديد ويسعى فيها متمتعاً بشمسها وقمرها وليلها ونهارها ولذائذها وطيب ثمارها .

إن الكوليرا عنيفة فى هجومها ، لا تعرف سناً أو جاهاً أو مالا . تغزو الأكواخ والقصور سواء بسواء وسيان عندها مزهو فى دمقس وغارق فى بالى الاسمال . ولقد كانت فيما مضى فتاكة لا تبقى ولا تذر ولكن اشكروا طبيب المعمل فقد روضها كما تروض الأسود والفيلة الضخام ثم سلم رسالته إلى طبيب العلاج ليطبقها على الضحايا من عباد الله فنال الشكر والحمد والثناء لنفسه وبقى طبيب المعمل فى ركنه يوالى أبحاثه فى صمت وسكون . لقد حضر لكم الطعم الواقى مثلا وهو أكيد فى مفعوله إذ يولد مناعة لا تزيد مدتها عن الخمسة شهور ويأخذ الشخص الكبير منه ½ سم ثم ١ سم من اسبوع أى ٤٠٠٠ مليون ثم ٨٠٠٠ مليون جرثومة . أما الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم السنتين يأخذون ¼ ثم ½ سم والذين تقل أعمارهم عن العامين يلزمهم ⅕ ثم ⅖ سم بعد اسبوع . ولا تتولد المناعة بعد حقن الطعم قبل عشرة أيام على الأقل ولذا يجب اتباع الاحتياطات اللازمة طوال هذه المدة ولا يغرينا الشعور بالسلامة الكاذبة على التراخى فى هذا السبيل .

أما عن العلاج فقد دق لكم الطب فى ميدانه أسافين عدة جعلت مقاومة المرض مائعة مراوغة بعد أن كانت كالصاعقة تضرب ضربتها بلا تردد وبلا انذار .

إن قرص السلفاجوانيدين مثلا من وسائل العلاج الحديثة ولما أذيع أخيراً عن تأثيره فى سير المرض تهافت الناس على اقتنائه بدرجة جعلته يكاد يختفى من الأسواق فى ساعات وهذا خطأ فادح لا أقرهم عليه فلو تركوه بوفرته السابقة لكفى وزيادة . فالمريض يلزمه للعلاج مائة وأربعون قرص تقريباً ولو (لا قدر الله) بلغت الإصابات الألف عداً لكان الموجود من الدواء يكفى وزيادة ويتعاطى منه المريض عادة ستة أقراص كل ٤ ساعات لمدة ثلاثة أيام ثم مرتين فى اليوم لمدة ثلاثة أيام أخرى . وقد وجد أن نسبة الوفيات فى الحالات التى عولجت بالسلفاجوانيدين حوالى الواحد فى المائة على حين أنها بلغت فى الحالات الأخرى التى حرمت منه حوالى ٣٨ فى المائة ، أما الحالات التى عولجت بمركبات السلفا وبحقن البلازما أى Plasma فى الوريد بقصد مقاومة الجفاف الذى يقاسى منه هؤلاء المرضى فنسبة الشفاء مائة فى المائة . ولقد ثبت أن هذه الطريقة الأخيرة تؤدى إلى نتائج رائعة . ولكن إياكم أن تتهافتوا على شراء هذه المادة كما فعلتم بالسلفاجوانيدين فهى غالية الثمن إذ يبلغ ثمن زجاجتها حوالى الاثنى عشر جنيهاً ولن يلجأ إليها إلا إذا جد الجد لا سمح الله . وحرام أن تحرموا منها من هو أحق بها منكم أعنى الذى أصابته لوثة الميكروب . والرأى العلمى السائد أنه متى توفرت هذه المادة فلن نسمح لجرثومة الكوليرا أن تعصف ببنى البشر من الآن فصاعدا

فنصيحتى أن نقابل الوباء بشجاعة وجنان ثابت فإن الكوليرا كمرض فتاك فى طريقها إلى المؤخرة بعد أن عمل الطب جهده . ولكن يجب ألا ننسى فى غمرة الفرح بنشوة الانتصار أن نشكر ذلك (النبى) المرسل الذى خلقه الله ثم سواه فصار طبيباً . انحنوا معى لطبيب المعمل الذى يسهر الآن ليأخذ بيدكم مجتازاً بكم ذلك الجسر الضيق الذى يصل السلامة بالفناء مخاطراً بحياته دون أن يبالى بالخطر المحدق به . وكل ما يطلبه منكم أن تتمسكوا بأصول الوقاية فى المنزل والشارع وهو مطلب لو تعلمون سهل بسيط . وليكن رائدكم الثبات فإن الحكومة ساهرة بشكل يستدر الإعجاب . وهى تبذل جهداً كبيراً كان يمكنها توفير بعضه لولا أنها تعامل شعباً نصفه جاهل وربعه غافل . أعانها الله .

دكتور مصطفى الديوانى

من أدب السودان :

الشرارة الأولى ...

للأستاذ عثمان طه شاهين

أخذت المدينة بأجمعها تتروح النسيم العليل ودلف إبراهيم — كعادته — إلى الشاطىء ليلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة من عناء يومه المنصرم وليستقبل الحياة الجديدة فى غده السعيد ، بيد أن إبراهيم لم يستطع أن يتخلص من تأملاته إلا قليلا إذ كانت روحة شاردة كأنها تريد أن تبحث عن سر الصمت العجيب الذى يلف الكون والناس والأشياء ، فأخذ يتجه ببصره إلى الأنوار الجميلة التى تبعثها قصور المدينة وطرقاتها ، مودعة النهار ، مستقبلة الليل كما يستقبله الأحياء ...

جلس إبراهيم على مقعد خشبى تجاه الشاطىء يرقب المياه المصطخبة ويتمثل الحسن الرائع الذى سكبته الشمس على الشاطىء وهى تكاد تودع يومها المكدود ، والناس من حوله فرحون مستبشرون ضاحكون عابثون فى أغلب الأحيان ، ولكن صاحبنا شارد اللب ، ساهم الطرف ، والرؤى والأشباح تتراءى أمام ناظريه فى هذه اللحظة السعيدة ، وكل ما فى الوجود ينبىء عن شىء جديد ... أخذت الشمس تبتعد شيئاً فشيئاً وأخذ الأصيل يفقد بهجته ورواءه ، وجيوش الظلام مسرعة ، ملحفة فى الإسراع ، والناس فرحون مستبشرون يودعون الأصيل الحبيب كما ودعوا نهارهم الذى كانت فيه بقية من قيظ وسحابة من عبوس ، وأخذ إبراهيم يبعد نفسه عن المقعد الخشبى الذى ألف الجلوس عليه عند الشاطىء ليستقبل الليل ...

آوى إلى غرفته يطلب الراحة والاطمئنان وترددت فى نفسه هذه الأحاسيس المتباينة من أضواء الحياة ومساربها وأخذ يستعيد الصور الجمة المتباينة ليبتعد بها عن عالم المحسوس ... أخذت الخليقة تسلم أنفاسها لسلطان الكرى ، وأخذت جيوش الظلام تتسلل إلى المدينة رويداً رويداً حتى لفتها بالغطاء الموحش الكئيب ، وأضواء المصابيح تبدو خافتة باهتة أمام هذا الكون ، وإبراهيم يتطلع من نافذته ليبصر الكون ، والكون — من حوله — صامت لا يبين ، والأغصان هادئة ساكنة والدجى مهود وسنان . يسرح الطرف ناظراً إلى بعيد ، محاولا سبر المستقبل ومعرفة الغد القريب ، بيد أن المستقبل عالم مجهول . وأحداث الماضى تتراءى ماثلة للعيان ، وسر الحياة عنده لغز حار فيه الفلاسفة والمصلحون ، والرؤى والأشباح ومعالم الحياة والفكر تتراءى أمام ناظريه فى كل عين .

والناس فرحون مستبشرون إلا قليلا وتزدحم أمام صاحبنا الأفكار ويستعرض تاريخ العالم وقصة الإنسان ، فهذا عبقرى أعجبت به الإنسانية وأحبه طلابه المخلصون ، وهذا شاعر غنى على قيثارته فأودع الحياة أناشيدها العلوية الرفيعة فتغنت بها الأجيال ، وهذا فنان سكب روحه فجاءت صورة أو تمثالا ينبىء عن قصة الإيمان بالفن والجمال والجلال ، وهكذا تزدحم الرؤى والأشباح وصاحبنا لا يكاد ينام ... والظلام يمعن فى قسوته وجبروته ، والإنسانية قد أسلمت أنفسها لسلطان الكرى ، وصاحبنا ينصت إلى نداء الظلام والناس من حوله غافون نيام ...

يغمض الفتى عينيه لينام ويدثر نفسه علها تجد الراحة من فرط عالمها الخارجى الذى اضطربت فيه طول النهار ولكن الأشباح ما فتئت تتراءى أمام ناظريه فيحدق فى الظلام من جديد ويفكر فى حقائق الأدب وروعة الفكر وجلال الأداء ؛ وساعات الليل تكاد تتعثر عرجاء ، مثقلة الخطى غير ناظرة إلا إلى المحبين ، والظلام من حوله يلف الكون فى صمت عميق والإنسانية بين أحضان الكرى ؛ والأشباح تتراءى أمام ناظريه من جديد ، فينظر — فى سر وإيمان — إلى أرباب العلم وأساطين الفن ويقدر الجهد المبذول ، ويكبر معالم التضحية والصبر والإيمان ، والناس من حوله هادئون نيام ، والوجود يلقى نظرة صادقة على صمود الحياة وأحلامها الوادعة ، وعمود الفجر يكاد أن ينشق ليسفر الصبح عن نبأ جديد !؟

أخذ الطفل الكبير ينظر إلى الأم التى جاءت لتستقبله كما يستقبل الفرد صباحه الجديد ، وتلهف القلب لرؤيته حتى بدا جلال الكون متمثلا فى روعته البهية ، وأخذت تنشد موسيقى الحنان الأبدى التى تدخرها كل أم لطفلها الحبيب قائلة فى صوت

خفيض : الأمهات من حولى ينعمن بأطفالهن والقلوب عامرة برؤية الأطفال عند كل صباح ، وأنا وحدى ألفت إلهن ، فرحة بك ، ذاكرة لك ، ولكنك لست بجانبي ... والعصافير تغرد فوق الأغصان ، والطيور تشقشق فرحة بربيع الحياة الندى ، والطبيعة توحى بالروعة والجلال ، وخرير الجداول ينقل إلى سمعى موسيقى الحياة الناعمة ، وعند طرفى المدينة ألمح شآبيب النور الحى ، ولكنك عنى بعيد !؟

أتذكر يا طفلى الوحيد يوم ودعتنى متجهاً صوب الشمال ، أتذكر يوم خلفت قلبى الثاكل الآمل ؟ فالقطار الذى تحرك بك ليقلك إلى وطنك الروحى الأصيل كان بداية عهد جديد فى حياتى نحوك ؛ ففى الصباح الباكر أصحو على موسيقى ذكراك الحبيبة وألتمس أخبارك فى كل آن ، وأنا اليوم أحب الحياة لأنك وهبتها لى ، وهل الحياة إلا فى طفلى وهل طفلى إلا عند الحياة ؟.. كان بكاء الطفولة فيك يؤلمنى ويقض مضجعى ، وكان مرح الطفولة فيك يملأ قلبى حباً بالحياة وتعلقاً بها ، وأنا الناظرة إليك من أقصى الجنوب يتلفت قلبى إليك ليدرك حياتك بين اللدات والأتراب ، فإذا رسائلك تحمل إلى فرحة الروح والحس والشعور فأزداد إيماناً بالحياة وتعلقاً بالوجود .

إذا ما دعا داعى الحى بأن فيه أحداً قد ذاق المصاب ذكرتك يا بنى واتخذت المصاب مصابى والعلة علتى وأحاطت بى الهموم والأحزان ، وإذا ما أذن مؤذن الحى بأفراح الشباب تهللت أساريرى مرتجية لك مثل ما للداتك الكرام ، وإذا ما عاد أترابك حاملين لأمهاتهم أفراح الشمال تلقيتهم فرحة لأنى أجد فيهم ريح طفلى الكبير ، ولكن دعنى أعرف جوانب الحياة وجوانب الروح فيك ، ودعنى أتحسس ما تريده فى الغد السعيد ..

جلس إبراهيم على مقعده الخشبى تجاه الشاطىء يرقب الناس فى صمت وسكون وإطراق ، وأحاديث الأم تعاوده وتلح عليه وتملأ القلب فيه والشعور والإحساس ؛ والناس من حوله فرحون مستبشرون يستقبلون الحياة فى لذة ونشوة وسرور ، والأمواج تقذف الشاطىء ثم ترتد عنه فى حياء وخجل ، والبساط الأخضر مورق على ضفاف الوادى متحدث فى صمت وسكون ، والفتى تتعاوده أحاديث الأم والقلب والروح ...

جد الفتى خطاه المتثاقلة إلى الدار ، وأخذت الرؤى والأشباح تستعيد صورتها السابقة من جديد ؛ ولجأ إلى كتاب مسطور يتحدث إليه عن الشعر والعلم والفن ولكن جوانب نفسه ترمه ولا تترك له بقية لنظرة فى كتاب ، فيهرب إلى فراشه عله يدفن رأسه فيه لينام ساعة من ليل ، ولكن الرؤى والأشباح ما فتئت تطارده فينهض ليقرأ فى صفحة الكون من جديد ...

والظلام المطبق يكاد أن ينجلى شيئاً فشيئاً ، والأصوات الخافتة التى تزحم أنفاس البشر أخذت تتأهب للمسير ، والأشجار الورقة ترسل موسيقاها الخافتة فى هدأة الليل البهيم ، وهمسات الدوح البعيد تستدعيه ليعمل مع العاملين ، ونقيق الضفادع يملأ أذنيه فلا يكاد يترك له بقية عابرة من ليله المنقضى .. ألمت بفتانا إغفاءة الفجر ، وأدرك عند ما استيقظ — أن المدينة أخذت كعادتها تزدحم فى ميدان الحياة العابرة ، وأن لهذه الفنون — التى جذبته بسحرها الرائع وجلالها المكنون — أرباباً عبدوها وقدسوها فكانت متعة للناظرين ، ولكن دقات الزمان ما فتئت تضرب على أوتار الحياة فتوهنها وما برحت تبدد أمامها آثار القوة والعظمة والطموح وهكذا تتجدد الإنسانية وتفنى العصور ويولد الكون من جديد ...

وأخذت الإنسانية تضطرب فى حياتها التى اعتادت منها أن تعيش وأنقضت سحابة النهار كما انقضت بقية الأخوات ، والشاطىء الحبيب يستدعيه ليجلس على مقعده الخشبى ليرقب الأشياء والناس ولكن جوانب النور أخذت تتراءى لديه من بعيد ، وفقد الشاطىء بهجته ورواءه ، والفتى ساهم الطرف ، شارد اللب ، ينظر حوله فلا يرى إلا الوجوه التى أخذت تضحك منذ أن استقبلت الحياة وعرفت الوجود ، فإذا بنشيدها ينقلب أسى وحديثها يصير هماً وضحكاتها المرتفعة تغدو عبوساً مطرقاً ، والشمس تنحدر للمغيب وجوانب الحى تتهيأ لاستقبال الليل كما استقبلت أحاديث النهار ، بيد أن القمر يبسط أشعته الفضية الزاهية على الربى والبطاح فيملأها حياة وجمالا وجلالا ، والنجوم الخفرات تتداعى من فرط استحيائها وجيوش الظلام تكاد تولى هاربة .. وحديث الأم يطرق الآذان من جديد فيصيخ إليه إذ يقول : ومن قدر السماء يا بنى أن تبسم الأمهات لأطفالهن

حول الفن القصصي في القرآن الكريم

أبدأ اليوم بعرض وجهة نظرى فى مسألة من أخطر مسائل بحثى وهى مسألة الأسطورة . وأرجو ألا يزعجنا هذا اللفظ ونقع فى أخطاء وقع فيها غيرنا حين ظن أن معنى الأسطورة الكذب والمين أو الخرافات والأوهام ، فذلك ما لم يقصد إليه القرآن الكريم .

ليست الأسطورة فى حس القرآن الكريم إلا ما سطره الأقدمون من أخبارهم وأقاصيصهم بذلك تنطق آياته وإلى ذلك فطن المفسرون .

قال الله تعالى [وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .) وقال تعالى (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين).

وجاء فى الطبرى ج ٩ ص ١٤٢ (والأساطير جمع أسطر وهو جمع الجمع لأن واحد الأسطر سطر ثم يجمع السطر أسطر وسطور ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر وقد كان بعض أهل العربية يقول واحد الأساطير أسطورة . وإنما عنى المشركون بقولهم أن هذا إلا أساطير الأولون أن هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد إلا ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بنى آدم وأنه لم يوحه الله إليه) .

ثم جاء فى الكشاف ج ٢ ص ١٠٣ (أساطير الأولين . ما سطره المتقدمون من نحو الحديث عن رستم واسفنديار جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة) .

وجاء فى المنار ج ٩ ص ٦٥٣ عند تفسيره لآية الأنفال « إن هذا إلا أساطير الأولين » . أى قصصهم وأحاديثهم التى سطرت فى الكتب على علاتها وما هى بوحى من عند الله . قال المبرد فى أساطير هى جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث وفى القاموس الأساطير الأحاديث لا نظام لها . .

قال المفسرون كان النضر بن الحارث .. كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال أنه يستطيع أن يأتى بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله . ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذى افتراها فإنهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم ومنهم النضر بن الحارث وقد قال

وقد بسمت للوليد الجديد يوم ميلاده وابتسم له اليوم عند الشباب وفى الأفق البعيد تتبدى أنوار العدالة والحق فتنعكس صفحاتها المشرقة على جبين الحياة فتزيدها نوراً على نور ، وتبعث الحضارة بما فيها من قوى روحية سامية ، ذلك لأن الحياة هى فى حقيقتها تلك اللحظات الروحية الرفيعة ؛ والفنون وأنماط المعرفة تملك التعبير الصحيح عن خير ما فى الإنسان من رقة ونبل وإحساس ، وهل حياة المعرفة والفن إلا نوعاً من التضحية والقلق يدفع بصاحبه للبحث وراء المجهول ...

وفى ثنايا الليل يظل صاحبنا باحثاً عن الحكمة ، ناظراً فى دنيا العلم ، مطرقاً مستغرقاً ؛ وهل عادت الروح من جديد تجاه الشرق لتجد عالم الهدوء والاطمئنان أم تبدت حياة الآلة كالحة فى نظرة الفتى الذى أجهده طول السهاد ؟! وأنغام الموسيقى تتهادى فى ضوء القمر ، والزهور الندية ترسل العطر لأبناء الإنسان ، وأذان الفجر يكاد أن ينادى بالصلاة والدعاء ، والمدينة أخذت تتأهب للحياة من جديد ، وجيوش الظلام أخذت تولى هاربة ولكنها لن تعود ...

واليوم تنبعث من جوانب المدينة أنغام الخلود ، وأضواء الشمس تتساقط من خلال الأشجار ، وعبير الأزهار بداية الربيع الساحر ، والأم فرحة بطفلها الذى يستقبل الحياة ، وحفيف الأشجار وهمسات النور المنبعث وأسارير الطبيعة تنبىء عن بداية الفوز ؛ والثغاء يملأ جنبات الوادى ، والرعاة يهدهدون القطيع فرحين مستبشرين ، والوليد الجديد فرحة القلب عند الأم الرؤوم .

عثمان طه شاهين
ليسانسيه فى الفلسفة

تعالى فى ذلك فإنهم لا يكذبونك ولـكن الظالمين بآيات الله يجحدون . بل كانوا يوهمون العرب أنه اكتتبها وجمعها كما فى آية الفرقان وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . أى ليحفظها »

يجب إذاً ألا تزعجنا هذه اللفظة فنجرى فيها وراء الخيال ونعتقد أنها الأكذوبة أو الخرافة وإنما يجب أن نقف منها عند المدلول الذى فهمه المفسرون والمعنى الذى قصد إليه القرآن .

وأعود فأقول إنى أعرض لهذه المسألة الخطيرة مسألة الأسطورة وآمل أن يتفضل علينا أصحاب العقول الراجحة والقلوب المستنيرة — من الذين يعرفون الدقائق الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية — بالمشاركة فى البحث حتى يفطن كل منا إلى حقيقة موقفه إن كان حقاً يحرص على الروح العلميـة فى بلدنا العزيز .

إنى لأقدر منذ اللحظة الأولى أنه من الجائز أن أكون قد أخطأت القصد أو ضللت الطريق وأن يكون الأستاذان الفاضلان أحمد بك أمين وأحمد الشايب قد أصابا ولـكنى لم أتبين بعد جانب الخطأ أو وجه الإصابة ومن هنا كتبت ما كتبت وآمل أن نصل إلى الحق المبين .

وامل نقطة الخلاف فيما بينى وبين أستاذى الفاضلين تضيق وتتضح حين نشرح الصنيع الأدبى أو البلاغى فى الأسـطورة شرحاً موجزاً ولذا نقول .

الأسطورة كما يعرفها الأدباء فى صنيعهم البلاغى وسيلة قوية فعالة من وسائل تجسيم المعانى وتمثيلها لتتضح وتبين . وهى من هذا الجانب تعتبر أداة من أدوات التعبير يعمدون إليها أحياناً للتعبير عن المعانى الفلسفية أو كل معنى دقيق عميق .

الأسطورة فى هذا الوضع تشبه اللفظة المفردة إلى حد كبير . وإذا كان من حق الأديب أن يعمد إلى المفردات فيحملها من العواطف والمعانى ما يريد فـكذلك من حقه فى الأساطير .

وإذا كان الأديب يخرج أحياناً بالألفاظ المفردة عن معانيها الحقيقية إلى أخرى مجازية فـكذلك يفعل بالأساطير .

وإذا كان التاريخ الأدبى يدلنا أحياناً على أن هذه المعانى المجازية قد أصبحت حقائق عرفية أو شاع استعمالها حتى لينسى الناس المدلولات الأصلية أو الأولى فكذلك يدلنا فى الأساطير .

وإذا كان الأديب حين يخرج بالألفاظ المفردة عن معانيها الحقيقية يبقى على مادتها فكذلك يفعل بالأساطير إذ نراه يبقى منها على جسم القصة أو هيكل الحـكاية . وكل ذلك واضح بين فى الصنيع الأدبى بحيث لا يحتاج منا إلى دليل .

ولعلك تعجب معى حين تعلم أن شيخاً من شيوخنا الأقدمين قد فطن إلى هذا الصنيع الأدبى فى القصص القرآنى قبل أن يفطن إليه أساتذتنا من الجامعيين .

فلقد فطن الرازى إلى هذا الصنيع الأدبى من اعتماد القرآن على الأسطورة عند شرحه لمواقف المشركين .

قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» من سورة يونس ما يأتى (الأول. أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس فى هذا الـكتاب إلا أساطير الأولين . ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحـكاية بل أمور أخرى مغايرة لها) .

فنحن نلحظ أن الرازى هنا يفرق بين شيئين .

الأول . هيكل القصة أو جسم الحـكاية .

الثانى . ما فى القصة من توجيهات دينية نحو قواعد الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف .

والرازى يلحظ أن الأمر الأول وهو هيكل القصة أو جسم الحـكاية هو الذى أدخل الشبهة على عقول المشركين ومن أجل هذا قالوا عن القرآن إنه أساطير الأولين .

والرازى يرى أن القوم قد جانبوا الحق وبعدوا عن الصواب حين نظروا من القصة إلى هذا الجانب . ذلك لأنه ليس الجانب المقصود من القصة وليس الأمر الذى يقصد إليه القرآن الـكريم حين يحدث ويقص .

ويؤكد الرازى هذا الأمر فى مناسبات أخرى حين يجعل أحياناً كلمة « بالحق» التى ترد كثيراً فى القرآن بعد بعض القصص وصفاً لما فى القصة من توجيهات دينية . فهو مثلا يقول عند تفسيره لقوله تعالى « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت

به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ما يأتى (أما الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .) .

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين » ما يأتى (اعلم أن قوله تلك إشارة إلى القصص التى ذكرها ... أما قوله بالحق ففيه وجوه . أحدها أن المراد من ذكر هذه القصص أن يعتبر بها محمد صلى الله عليه وسلم وتعتبر بها أمته فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمة) .

وإذا وصلنا إلى هذه النقطة وعرفنا أن الصنيع الأدبى أو البلاغى فى الأسطورة هو الأمر الذى فطن إليه الرازى وقال بوجوده كان علينا أن نرصد الفوائد التى نجنيها أو المضار التى نزيلها حين نتابع الرازى فى رأيه ونفسر بعض القصص القرآنى فى هذا التفسير البلاغى أو الدينى القديم .

أما الفوائد فهى رد عادية المستشرقين والملاحدة حين يوجهون الطعن إلى النبى والقرآن الكريم . ذلك لأنهم يقولون بما قال به المشركون من قبل من أن القرآن قد جاء بالأساطير . ولعل هؤلاء أقوى سنداً وأثبت حجة حين يوردون الدليل تلو الدليل على ما ورد فى القرآن من أساطير .

لن نقول لهؤلاء إلا ما قاله الرازى لأسلافهم منذ قرون . ولن نطلب إليهم إلا أن يفرقوا بين أمرين جسم القصة أو هيكل الحكاية وما فيها من توجيهات دينية نحو الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف . ولن نقول لهم إلا أن الأمر الأول كان وسيلة لا غاية وأنها وسيلة غير مقصودة لذاتها من القرآن الكريم . ولن نقول لهم إلا أن الأمر الثانى هو المقصود بالذات وأنه الحق الذى ليس بعده حق فيما يخص دعوتنا الإسلامية وشرعنا الحنيف .

إن تمسكنا بالرأى الذى يقول أن جسم القصة أو هيكل الحكاية حق ثابت بعد أن ثبت لدى العلماء الدارسين أنها من الأساطير أمر يعرض القرآن لشر عظيم .

وإن قولنا بالتفرقة بين الأمرين جسم القصة وما فيها من توجيهات هو الذى يتفق والصنيع الأدبى وهو الذى يرد عن القرآن عادية الملاحدة والمستشرقين .

هذه أخطر نقطة فيما بينى وبين أستاذى من خلاف . أعرضها عليكم وعلى قراء مجلتكم وعلى الرأى العلمى . وإنى ليدفعنى إلى القول بهذا الرأى حرصى أولا على سلامة القرآن الكريم من عبث الملاحدة والمستشرقين . وحرصى ثانياً على ألا نتخلف فى الدراسة الأدبية فنعجز عن فهم أبلغ نص نعتز به وهو قرآننا الكريم .

إن فهمى الأدبى لما فى القرآن من قصص يعتمد أحياناً على أساس من الأساطير يقوم على أساسين كما رأيت .

الأول تلك اللفتة الكريمة من الرازى وهى لفتة أدبية نحرص عليها ونعتز أن صدرت عن شيخ من شيوخنا الأقدمين .

الثانى ذلك الصنيع الأدبى الذى يجرى العمل فى القصة الأسطورية منذ القديم .

وليس فى هذا وذاك ما يضر الدين أو يؤذى قرآننا الكريم إن المسألة أخطر وأعمق من أن يتناولها غير الباحثين الذين يفطنون إلى الدقائق الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية وإنى لآمل أن يوفقكم الله إلى تسديد خطوات الباحثين فنحل تلك المشكلة الجامعية التى يتخوف فيها بعض رجال الجامعة من بعض رجال الدين

محمد احمد خلف الله
كلية الآداب — جامعة فؤاد

من وراء المنظار

ذات صبـــــاح

أوشكت أن تنشق على الأفق الشرقى كلة الصباح الوردية عن جبين الشمس ، وأنا جالس فى مصلى على حافة ترعة كانت تفهق بذلك الفيض الحبشى الذى حمله النيل من هضبات وادينا الحبيب ؛ وكانت تحجبنى عن الطريق العريض على الضفة الأخرى للترعة أغصان الصفصاف المتهدلة التى تمس الماء فتبدو كأنما تحنو على هذا النضار الغالى ؛ وجلست بحيث أتبين المارة فى يسر من خلال الصفصاف الحانى ولا يكاد يتبينى أحد إلا فى مشقة ...

ورحت أرقب طلوع الشمس على الأفق ، ولعلى إنما طلبت الفضاء فى السماء حيث غطت الفضاء على الأرض عيدان الذرة وقد استطالت واستغلظت على سوقها وأخرجت سنابلها ، وعيدان القطن وقد طالت فروعها وتدلت زهراتها ، فلم يبق أمام ناظرى على الأرض إلا ذلك الطريق القريب على الضفة الأخرى للترعة تتقاطر فيه أسراب الصبايا عائدات بجرارهن من الترعة الكبيرة فى هذه البكرة الرخية ، خفيفات تتماوج قدودهن المشوقة الناهدة تحت الجرار الثقيلة الطافحة بالفرات العـــذب الذى يجرى به النيل ...

وجاءت فتاتان فآثرتا أن تملآ جرتيهما على مقربة من المصلى فكنت أراهما من حيث لا ترياني ، أما إحداهما فما لبثت أن عرفتها فهى بهيجة بعينها ! ... بهيجة تلك البنية الريفية التى ما كنت ألقاها وهى بين العاشرة والثانية عشرة إلا استوقفتها وضاحكتها والتى كنت أحدث نفسى يومئذ بما سوف يكون لها من فتنة وسحر ...

وها هى ذى فى الثامنة عشرة أو فوقها قليلا شمس يضىء جبينها الأبلج كما تضىء شمس الأفق ، قد أفرغت فيها الطبيعة الريفية سحرها إفراغاً كما يصنع الفنان بدميته حين يريد أن يبلغ بها منتهى قدرته ؛ وملأت ناظرى من خصرها الدقيق وردفها الملىء وصدرها الناهد ؛ وشمرت عن ساعديها وكشفت عن ساقيها لتنزل على حجر فى الماء ، فما حسبت ساقيها وذراعيها لولا تحركها وتثنيها إلا صنعة فنان بالغ فى تسوية مرمره ليتحدى به الطبيعة أما وجهها فما تغنى اللغة عنه فلن يتصور جماله إلا أن يرى ...

وأما صاحبتها فسمراء لعوب فى وجهها وفى هيكلها وفى حديثها ما نسميه خفة الروح ، وهى لا تفتأ تضحك وتداعب رفيقتها ولا تزيد بهيجة على أن تبتسم ابتسامة طفيفة لا تلبث أن تنطفىء ...

وحيرنى هـذا الهم فى وجه بهيجة ، فعلى فمها الرقيق وفى عينيها الواسعتين الزرقاوين الطويلتى الهدب ، خيال الألم والحزن الدفين ، وفى خديها شىء من الشحوب لولا تلك الحمرة الشديدة التى تمتاز بها صفحة هذا الوجه ...

وقالت فاطمة — وهذا اسم صاحبتها كما تبينت — تحدث بهيجة وهى فوق الحجر يغطى الماء ما فوق خلخالها قليلا : ادفعك يا بهيجة فى الماء فتغرقين وتلتهمك الجنية ؟ وقالت بهيجة ليتنى أغرق فلن ينجينى إلا الموت !

وعجبت مما أسمع وازددت تطلعاً إلى معرفة ما يحزنها فما أشد ما يؤلم النفس مرأى الجمال الحزين ، وأنصت إلى فاطمة وقد ألقى فى روعى أنها سوف تكشف هذا السر ...

وقالت فاطمة ، وقد خرجت صاحبتها من الماء بعد أن ملأت الجرتين وجلست مستندة إلى جذع شجرة : فيم هذا الهم يا أختاه وغداً ليلة الحناء ؟ وحاولت بهيجة أن تبتسم ، فما افتر ثغرها الجميل حتى انطبق ، وامتلأت مقلتاها الساحرتان بالدمع ، وتسايل الدمع يجرى فوق خديها ، ثم دفنت وجهها فى كفيها وأجهشت إجهاشة كادت تطلق الدمع من عينى ... وما أيسر ما ينطلق دمعى فلا أمسكه إلا بجهد ...

وأمسكت فاطمة عن الضحك وراحت تهدهد صاحبتها وتقول : لعل الخير فيما تكرهين ، وما عيب حسن وهو ابن الجمل والناقة ، فى بيته الخير وزوجات إخوته من أحسن البيوت وإن لم يكن جميلات ، وسوف تكونين أنت زينة الدار ... وبأى شىء يمتاز إبراهيم عنه ؟ وكيف تقوى الواحدة منا على مخالفة أبيها ؟ رأى أبوك أن يزوجك من حسن فهل تعصينه ؟ وما

فلسفة طاغور في العلم والعمل

للأديب عبد العزيز محمد الزكي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

ويفسر طاغور إنفصال إرادة الإنسان عن إرادة الله إنفصالا ظاهرياً غير مطلق، بأن الله قد منح الإنسان بدافع من حبه له حرية التصرف في شئون العالم، كما يمنح الأب لابنه مقداراً من المال، ويترك له حرية التدبر في حدوده؛ فهذا المال ما زال ملكا للأب وإن وهبه لابنه، وأخرجه من نطاق إرادته. وكذلك المال بالنسبة للانسان، فأن حرية إرادته دائماً ملكا لله، وأنه أغدق بها عليه، وأخرجها من نطاق إرادته، وترك له حرية العمل في حدودها، وفي مجال الشئون المالية.

فالإرادة عند طاغور حرة من جهة، ومقيدة من جهة أخرى فهي أولا حرة من حيث أن الله وهبها السيادة على الأمور المتصلة بعالمنا الصغير؛ حتى يمكن أن تخضع لقانون إرادته الكبير طائعة مختارة، وبدون فرض أو إلزام؛ وحتى تتحد باللانهاية، وتتفق حريتها الكاملة اللا محدودة، التي لا تتم إلا بتوافق إتحاد إرادتين حرتين. وهي ثانياً مقيدة من حيث أن الله جعلها محدودة، وخاضعة لقانونه، إذ لو منح الإنسان إرادة غير مقيدة بقانونه، وتعمل بدون حدود، لفقدت قدرته كل معنى لها، ولتعذر عليها أن ترتقي وتكمل، لأن القوة لا تنمو وتتطور وترتقي وتكمل، إلا إذا كانت تعمل في حدود؛ أي أن الإرادة التي تعمل في حدود، يمكنها أن تتقدم في الرقي إلى أن تكمل، بأن تخضع لإرادة الله اللا متناهية، وتندمج فيها، وتصبح هي وإرادة الله إرادة واحدة تملك حرية مطلقة غير محدودة

أما عن الإرادة التي تتخدع بحريتها المحدودة، وتندفع في تيار الإنفصال، وتتمرد على إرادة اللانهاية، بدافع من الإنانية والغرور والكبرياء وحب السيطرة والعناد والجشع وحب التدمير، وبدافع من جهل حقيقة وحدة الكون الكامنة في الطبيعة الإنسانية؛ فإنها ستعيش أبداً في حدودها الملونة بالشهوات، وستظل أسيرة المظهر وسجينة الباطل، فتقع في الخطايا، وترتكب الآثام والذنوب، وتجلب على نفسها العار والمزلة، وتضطر في النهاية إلى أن تتراجع شيئاً فشيئاً عن مسلكها الخاطىء، وترجع إلى منبعها اللانهائي الذي فصلت منه بأرادة الله، وتخضع إرادتها الفردية للارادة الكبرى، بأن تظهر طبيعتها الكامنة في النفس الإنسانية، وتشعر أن الوجود كله وحدة كاملة، وتدرك أن وجودها

جدوى البكاء، وقد صرت في عصمته؟

وأثار كلام فاطمة حزنها كله فاسترسلت في بكائها وصحب هذا البكاء أنين متقطع، كأنما كان ما ألقي في سمعها من كلام طعنات خنجر شاعت في جسمها ففي كل موضع منه طعنة ...

ونظرت في وجه فاطمة تحسب أنها من أعدائها، ورأيت في وجهها كأنها تريد أن ترى فاطمة ما تعتزم عليه من عصيان ...

ولمحتني فاطمة من خلال الصفصاف فغمزت صاحبتها وهمست في أذنها؛ ومسحت بهيجة عينيها بذيل ثوبها الأبيض الذي سحبته من تحت ردائها الخارجي الأسود، وأصلحت الفتاتان جرتيهما ووضعتاها على رأسيهما، ومر رجل فأعانهما على حمل جرتيهما وانطلقتا صوب القرية ...

ولاحظت على بهيجة أنها لا تكاد تقوى على حمل جرتها، فكانت خطواتها أثقل من خطوات صاحبتها، وكان عودها اللدن يتثنى من إعياء لا من عجب تحت جرتها الثقيلة، وما زلت أتبعها بنظراتي حتى غيبتها عني في منعطف عيدان الذرة ...

وبقيت ساعة يكرب نفسي ما يحزن بهيجة، كما تكدر خاطري طيوف منكرة سوداء من السم والحريق والقتل وإتلاف الزرع من جرائم الريف يمثلها لي هذا السبب الذي سمعته بأذني؛ وطاف برأسي الطلاق والنفقة والهجر والخصام وبيت الطاعة والمعارك بين الأسر، بل ما روعني من صور الخيانة والفجور وغيرها من أفعال الظلام، وما تجره في أعقابها من شر وانتقام. كل أولئك مثلته لي ثورة بهيجة ...

الخفيف

الفردى فى اتحاد تام مع هذا الوجود الشامل ، وبذلك تحقق حريتها الكاملة ، مثلها فى هذا مثل البرعم ، فإن كانت حرية البرعم لا تتحقق إلا بظهور الزهرة الكامنة فيها ، فإن كمال حرية الإرادة لا ينال إلا بمعرفة الحقيقة الكائنة فى أعمق أعماق النفس ، وإدراك اتحادها بالجوهر الثابت الذى يشتمل سائر الأشياء . وذلك لا يكون إلا بخضوع إرادة الإنسان لسلطان إرادة الله اللامتناهية عن طريق العمل الدائم المتجدد فى مختلف نواحى نشاط الإنسان ، وعن طريق فعل الخير وأفكار الذات ، وعن طريق ملاشاة فرديتنا الإنسانية فى الله ، والإيمان العميق بحقيقة وحدة الوجود الشاملة ...

وقد يرى لى بعض الهنود أن اعتزال الحياة ، وتجنب المجتمعات واحتقار الأعمال الدينوية ، وهجرة الأهل ، والتجول فى الغابات وسكنى الكهوف والمغارات من خير السبل لتحقيق حرية الإرادة الكاملة ، وتخليص الروح من الموانع المادية التى تحول دون إنطلاقها فى اللانهاية غير مقيدة بأى قيد . غير أن طاغور ينكر على هؤلاء الهنود أنه يمكنهم بهذا السلوك ، أن يفوزوا بحريتهم الكاملة فى الحياة ، لأن النفس مهما كانت طهارتها لا تستطيع أن تعيش حرة على إحساسات ومشاعر وأفكار محبوسة فى داخلها لا تشغل بموضوعات خارجية ؛ وأن الإرادة مهما بلغ تحررها من الشهوات والرغبات ، ونالت من حرية روحية ؛ بأنها لا تحقق حريتها الكاملة فى الحياة ما دامت هذه الإرادة تنفر من العمل ، ولا تقبل أن تؤدى أية مهمة فى العالم الإنسانى ، غير أن تقطع علاقاتها بكل ما فى الأرض ، ناشدة بذلك تحقيق إدراك وحدة الوجود الشاملة الكامنة فى قرار الطبيعة الإنسانية .

وقد يتمادى بعض القوم ، ويظنون أن الخوض فى الحياة يسبب للانسان آلام متنوعة ومتاعب جمة ، تقلق النفس ، وتدب فيها الخوف ، وتملؤها بالحزن كما يزعمون أن الموت نهاية الحياة فيكفى أن نقوم بأعمال تسد رمقنا ، ونبعد عنا قساوة الجوع والعطش ؛ إذ ما فائدة عمل متواصل يتحدد فى حياة يهددنا فيها الموت فى كل لحظة ! وطاغور لا يغفل ما فى الحياة من آلام قاسية ، ومتاعب مضنية ، قد تكشف عن خيبة الإنسان فى عمله وتبين له نقصه فى المعرفة ، وتشعره بضعف فى إرادته ؛ إلا أنه يقرر إنه إذا نظر إلى أعمالنا الفردية من ناحية محدودة ، يكون وقع الآلام قاسى على النفس ، أما إذا نظرنا إليها من ناحية أعم وأوسع ، فتشمل ما يقصد بها من تحقيق المثل الأعلى لكمال الحياة تشعر بالسرور ، وتذهب وطأة هذه الآلام عنا حين نعرف أن أعمالنا ترى إلى غاية سامية يهون فى سبيلها المتاعب . كما يمكن أن نتجنب الفشل فى العمل بالمصابرة فى التدرب عليه حتى تتقن أداته ؛ وأن نصلح ما نقع فيه من إخطاء با كمال نقصنا فى المعرفة ، وبالتزود بنور العلم ؛ وأن نقوى ما فى إرادتنا من ضعف بمحاربة الباطل والشر فى داخل نفوسنا وخارجها . وذلك كله يعمل على تقدم الحياة الإنسانية ورقيها . وقدرة الحياة على التقدم لدليل قاطع على كذب حس قوم يمعنون فى التشاؤم ، ويعتقدون أن الحياة شر فى شر ، وأن المؤمن فيها لا يجلب إلا الآلام والمتاعب . ولذلك يرى طاغور أن التشاؤم ليس إلا مجرد مظهر عاطفى أو عقلى ينبذ ما فى الحياة من سرور وقدرة على التقدم ، فيحدث قوى من الحزن المصطنع الذى يظامىء بدوره النفس إلى الاستزادة من التشاؤم ، ويبعث فيها اليأس والقنوط ، فتوقع الفشل فى كل عمل وتوهم الموت فى المخيف الرعب فى كل خطوة ، فلا ترى فى الحياة إلا آلاما وموت بينما يمكن التغلب على أسباب الآلام كما سبق أن ذكرت . أما الموت فما هو إلا حقيقة سلبية ، وليس حقيقة أخيرة فى الوجود ، وإنما الحقيقة اللانهائية فهى وحدة الكون الشاملة ، وما هو كذلك إلا حدث من أحداث الحياة التى يعد الموت جزءاً منها ، ولا يعبر عن حقيقتها إنما يعبر عن حقيقته فقط فلا يجب أن يفزعنا كل هذا الفزع ونقصر فى العمل ، ونهمل التجديد فيه ونقنع فيه بذلك العمل الذى تقرره لنا الطبيعة كما تعمل الحيوانات من أجل الطعام والشراب .

ليس هناك إذاً باعث جدى يمنع الإنسان عن العمل ؛ فإن الفشل سبيل إلى النجاح ، والألم وجه من أوجه السرور ، والنقص هو الذى يدفعنا إلى الكمال ، ويجعلنا عظماء فى الحياة . فلا يجب أن يفزعنا الألم والحزن ، ونتجنب العمل المتعب ، فإن حرية الروح فى تحمل المتاعب . وعلى الذين ينشدون تحرر أرواحهم ، ويريدون الحياة فى اللانهاية ، أن يزاولوا أعمالا مستمرة جدية ومجدية ، وأن يخلقوا ميادين متعددة للعمل ، ويجتهدوا فى ترقيتها وتوسيع نطاقها ، وألا يقنعوا بالأعمال البدائية التى تقررها لهم الطبيعة . فإن الاستمرار فى العمل يحرر قوى الإنسان ، وعيها

القدرة على التجديد فيه . فإن الرجل الذى يحول غابة موبوءة إلى حديقة جميلة ، قد حرر قواه واستطاع أن يعطى هذه الحديقة جمالا يعبر عن جمال روحه ؛ أما إذا تعذر عليه أن يعطيها هذا الجمال ، فقد فشل فى تحرير روحه من الداخل ، وخاب فى التعبير عنها بالعمل ، وعليه أن يستمر فى مزاولة عمله والتدرب عليه حتى يحرر قواه فيتمكن من أن يظهر طبيعته فى مختلف نواحى النشاط الإنسانى . إلا أن هذا الإظهار لا يتم ما لم يتحرر العمل نفسه من ضغط الحاجة من ناحية ، وما لم يتميز كوسيلة يقصد بها وجه الله ، وما لم يرفض النظر إليه كغاية فى ذاته ، وينتظر من ورائها نفع قروى محسب من ناحية أخرى . لأن الحرية الصحيحة لا تكتسب فقط بالعمل بل يشرط فى اكتسابها حرية الإنسان فى عمله ولا يساق إليه بحكم ظرف عارض مثل الفرق أو الجوع ، فإنه حين ذاك يعمل وفق المصادفة والإتفاق ، ويصير عمله نوعاً من التدبير الوقتى المصطنع الذى لا بد أن يتركه بعد أن يزول أو يتغير هذا الظرف العارض . فوق أن ضغط الضرورة يعوق النفس عن إظهار حقيقة طبيعتها فى العمل . ولذلك لا يجب أن يكون باعثنا على العمل الفرق أو الجوع ، وليكن دائماً دافعنا إليه حب الخير وتأديتنا له لوجه الله . فإن الذى يهب حياته لتحقيق فكرة سامية يقصد بها خدمة الوطن أو خير الإنسانية ، لا يبالى عادة بكل ما يقابله من عقابات ومتاعب وآلام ، بل يرحب بأن يضحى بحياته ، ويقدم على الموت فى سبيله تحقيق ذلك الخير الذى سيعم الجميع لأن أداء مثل هذه الأعمال الخيرة تعطى للحياة قيمة عليا ، يتلاشى فيها كل العوائق المتناقضة ، أو يتحرر بها الروح تحرراً كاملا من كل ما يتصل بالحياة ، ولا تدرك إلا حقيقة خالدة ، هى حقيقة وحدة الكون الشامل الذى يتجلى الله فى جميع أجزائه .

وأخيراً نلخص كل ما سبق فى أن طاغور لم يجد صعوبة فى التوفيق بين طلب العلم وأداء العمل وبين ما فهمه من تعاليم الهندوس . فرأى أن العلم من أروع الوسائل التى تقربنا من الطبيعة أو تساعدنا على الاندماج فى الكون والاتحاد بالوجود ، لأن القوانين التى يتوصل إليها العلم هى فى الأصل صور صغرى للحقيقة الكبرى ، وتبين أن هناك صلة عقلية وثيقة بين الإنسان والطبيعة ، وأنها فى اتحاد تام مع الأشياء . فالتزود بها ، والبحث عنها ، والاستمرار فى المزيد من الكشف عنها أمر ضرورى لكل فرد يريد أن يبرز الحقيقة الكبرى الكامنة فى نفسه ، ويدرك وحدة الوجود الشاملة . أما عن العمل فهو من أهم الوسائل التى تحرر قوى الروح ، ويعبر عن طبيعتها ، ويظهر أفكارها ومشاعرها وإحساساتها ، فتتحقق حريتها الكاملة فى الحياة ، وتفوز بالعيش فى اللانهاية .

عبد العزيز محمد الزكى
ليسانسيه فى الفلسفة

تعقيبات

منى الأستاذ الطناحى :

أعرف الصديق العزيز الأستاذ « طاهر الطناحى » أديباً محققاً يجمع فى ثقافته وفى كتابته بين طلاوة الحديث وعراقة القديم ، ولكن يظهر أن الحياة الصحفية تتعجله فى بعض الأحيان فيهفو، وقديماً قالوا لكل عالم هفوة ، وهو حكم يجرى على سائر العلماء .. حتى الأستاذ الطناحى .

شوقى . . . وليالى سطيح :

فقد كتب الأستاذ فى العدد الأخير من « الهلال » مقالا تحدث فيه عما كان « بين شوقى وحافظ » من منافسات ومدافعات فى ميدان الشعر وفى ميدان الحياة ، قال فيه :

« .. وكانت لشوقى بدوات وغفلات أغضبت حافظاً وحركت فى نفسه نزوة الشباب ، حتى إنه لما أنعم الخديوى عباس على حافظ برتبة البكوية وأقيمت له حفلة تكريم ترأسها شوقى صامتاً ولم يهنئ صديقه ببيت واحد ؛ ولم يفت ذلك حافظاً ، فحملها له مع ما حمل من أشياء ، ولما وضع كتابه « ليالى سطيح » تناول فيه ديوان « الشوقيات » الأول ونقده نقداً لاذعاً .. »

ثم أورد الأستاذ بعد ذلك ما قاله حافظ فى « ليالى سطيح » عن الشوقيات ...

قلت : هذه رواية تحتاج إلى تحرير وتصحيح ، فإن حافظاً قد أخرج « ليالى سطيح » للناس ، وقال فيها ما قال عن شوقى والشوقيات عام ١٩٠٨ م . أما حفلة التكريم التى أقيمت له لمناسبة الإنعام عليه برتبة البكوية ، والتى ترأسها شوقى صامتاً ، فقد كانت عام ١٩١٢م ، أى بعد ظهور « ليالى سطيح » بأربع سنوات ، وإذن فالحكم الذى انتهى إليه الأستاذ فى هذه الرواية غير صحيح ، لأنه بناه على مقدمات مغلوطة التاريخ .

مال واحتجب :

تلك واحدة ، وهناك ثانية ، فقد أورد الأستاذ فى مقاله الرواية التالية فيما كان « بين شوقى وحافظ » فقال :

« وحدث أيضاً أن أقيم مرقص فى قصر عابدين ذات ليلة ، فحرك هذا الرقص من شاعرية شوقى ، فقال فى وصفه قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب وادعى الغضب

فاتخذها حافظ وقتئذ وسيلة للتهكم والاستخفاف ، وسار يوماً فى نزهة مع صديقه المرحوم عبد العزيز البشرى بجزيرة الروضة وجعلا ينظمان قصيدة هزلية فى معارضة هذه القصيدة ، كان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول شطراً ، ومطلعها :

شال واتخبط وادعى العبط
ليت هاجرى يبلع الزلط

إلى آخر تلك القصيدة التى بلغت ستين بيتاً .. »

قلت : وهذه أيضاً رواية تحتاج إلى تحرير وتصحيح ، فإن شوقى قد نظم قصيدته « مال واحتجب » فى وصف « البال » الذى أقيم فى قصر عابدين عام ١٩٠٤ م ، وكان هذا « البال » يقام كل عام ، وكان شوقى يصفه كل عام ، أما معارضة حافظ لهذه القصيدة ، فإنها ترجع إلى تاريخ قريب ، وهو يوم أقام أدباء العربية مهرجان المبايعة بإمارة الشعر لشوقى عام ١٩٢٧ م .

ذلك أن صديقنا الشاعر المرحوم محمد الهراوى كان يرى أن لقب « أمارة الشعر » بدعة ، وأن لكل شاعر مكانته ووضعه وامتيازه فى عالم الشعر ، فلما توجهت الدعوة لإقامة ذلك المهرجان لشوقى ، أخذ الهراوى يحرض أصدقاءه من الشعراء على مقاطعة ذلك المهرجان ، وعلى عدم مبايعتهم لشوقى بلقب الأمارة ، وكان يعمل مع حافظ فى دار الكتب فتحدث معه فى هذا الشأن ، كما تحدث مع الشيخ عبد المطلب ، وفى ليلة اجتمعوا ومعهم لفيف من أصدقاء الهراوى وأصدقاء حافظ وأمضوا سهرة صاخبة فى مقهى فى نهاية العباسية شرب فيها من شرب ، وطرب من طرب ، واستخفهم التهكم على شوقى ، فأخذ حافظ ينشد :

شال واتخبط وادعى العبط

وأخذ الحاضرون يجيزون على هذا النمط حتى بلغوا بالقصيدة ستين بيتاً ، كما يقول الأستاذ الطناحى ، وكان الهراوى رحمه الله يقيد ما يقال ...

وفى الصباح اجتمع حافظ والهراوى ومن معهما فى دار الكتب وأنشد الهراوى هذه الأبيات :

إن شوقي شاعر   كلنـا أجلّه
غير أنا معشر   ليس يرضى ذله
وهي «جمهورية»   لا ترى عـدله

أما حافظ ، فإنه أخذ ينشد الحاضرين ما أعده لمبايعة شوقي بأمارة الشعر ، فعجب الحاضرون ، وصاح فيه المراوى : أين ما اتفقنا عليه ؟ ! فقال حافظ : أجل ، إننى عند ما اتفقنا عليه بالنسبة لكم ، أما بالنسبة لى ، فإنى لا أستطيع أن أتخلف عن مبايعة شوقي فى ذلك المهرجان ، لأننى رجل جبان ... !

رحم الله حافظاً ، وطيب ثراه ، فوالله لقد كان شجاع الرأى والقلب ، جرئ الضمير والجنان ...

بين شوقي وحافظ :

والواقع أن ما كان « بين شوقي وحافظ » قد صوره حافظ فى شعره وفى نثره وأفصح عنه ، على حين كان شوقي يطوى ذلك فى نفسه ، ويصوب إلى منافسه الضربات العملية لا الكلامية .

كان حافظ فى بداية الأمر يضع شوقي أمامه ، ويشهد له بالسبق ، فنراه حين يتقدم لمدح الخديوى فى عيد الجلوس عام ١٩٠١ م يقول :

ما ذا ادخرت لهـذا العيد من أدب ؟
فقـد عهدتك رب السـبق والغلب
لم يبق (أحمـد) من قول أحاوله
فى مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعب

ثم يأتى العيد الثانى فيبقى حافظ على عهده فيقول :

يا ليـلة الهمتنى ما أتيه به   على حماة القوافى ، أينما تاهوا
إنى أرى عجباً يدعو إلى عجب   الدهر أضمره والعيـد أنشاه
قل للألى جعلوا للشعر جائزة   فيم الخلاف ؟! ألم يرشدكم الله ؟
إنى فتحت لها صدراً تليق به   إن لم تحـلوه فالرحمن حلاه
لم أخش من أحد فى الشعر يغلبنى   إلا فتى ما له فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعتـه   وأكرم الله والعباس مثواه

بل لقد رضى حافظ لنفسه أن يتشبه بشوقي ، لا أن يقف معه فى ميدان المنافسة ، فنراه يمدح الخديوى فى عيد الفطر فيقول :

مطالع سعد أم مطالع أقمار   تجلت بهذا العيد أم تلك أشعارى ؟
إلى سدة العباس وجهت مدحتى   بتهنئة شوقية النسج معطار

ولكنا بعد ذلك نرى حافظاً يتغير على شوقي ، ويأتى به إلى الخلف ، ويعلن عليه هذه الغارة الشعواء إذ يقول فى مدح الخديوى :

طف بالأريكة ذات العز والشان
واقض المناسك عن قاص وعن دان
يا عيـد ... ليت الذى أولاك نعمته
بقرب (صاحب مصر) كان أولانى
صفت القريض ، فما غادرت لؤلؤة
فى تاج كسرى ، ولا فى عقد بوران
شكا عمان ، وضج الغائصون به   على اللآلى ، وضج الحاسد الشانى
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف
ساحت فيـه لنظـام ووزان
عابوا سكوتى ، ولولاه ما نطقوا   ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم   عهـد النواسى أو أيام حسان
أزف فيـه إلى العباس غانية   عفيفة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاها يراع فتى   صافى القريحة صاح غير نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده   ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته   فى موطن بجلال الملك ريان

وهكذا أخذ حافظ يغمز شوقي ويقرصه فى كل مناسبة ، وكان من ذلك حملته عليه فى كتابه « ليالى سطيح » ، وله شعر فى هجائه ، يعف القلم عن إيراده ...

خلاف بين طبيعتين :

وهذا الذى كان « بين شوقي وحافظ » لا يمكن أن نسميه « خصومة » ، وإنما هو مظهر الخلاف بين طبيعتين ...

فقد كان شوقي فى ميدان السباق كالجواد الحر ، يغار من ظله ، ولا يطيق أن يرى أحداً يلحق بغباره ، ومن المعلوم أنه كان يعيش فى رحاب الخديوى ، وكانت له عنده حظوة بالغة ، وكلمة نافذة ، ومشورة مسموعة ، ولكنه لم يحاول أن ينفع أحداً من الأدباء والشعراء بجاهه هذا ، بل إنه كان يدس الدسائس ولا يتورع عن الأساليب النابية فى قطع الطريق على كل متقدم ، وبهذا الدافع وقف لحافظ — وهو الذى كان يخافه — بالمرصاد ، فسد فى وجهه باب الخديوى ، وقطع عليه الصلة بالخلافة العثمانية ، وساعدته الأقدار فحرمت حافظاً أكبر عطف بموت الأستاذ الإمام ، فلم يجد حافظ أمامه إلا الشعب ، فعاش للشعب وبالشعب

تلك كانت طبيعة شوقي ، أما حافظ فكان أوفى منه إنسانية

وأسمح طبعاً ، لقد كان يحمل بين جنبيه قلباً يود لو يسع فيه كل محروم ومظلوم ، ويود لو يستطيع أن يوزعه على الجميع ، ثم لا يبقى له منه شيئاً ...

أذكر أني كنت معه في مرة أنا والمرحوم صديقنا الأستاذ ابراهيم الجزار الممثل ، وكان ابراهيم يجيد إلقاء الشعر كأروع ما يكون ، فطلب منه حافظ أن يلقي عليه بعض ما يحفظ ، فأخذ ابراهيم يلقي عليه قصيدته التي قالها في مبايعة شوقي بالإمارة ، وأخذ حافظ يهتز مجاوباً لنغمات الإلقاء ومقاطعه ، وبعد الإنشاد أخذنا نسأله عن رأيه الحقيقي في شعر شوقي ، فما تكلم عن شوقي الشاعر ، ولكنه أخذ يتكلم عن شوقي الرجل فقال : « إن شوقي رجل نذل » ، وقص علينا كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمي إلى مصر غريباً طريداً ، فطمع أن يكون له في رحاب الخديوي متسعاً ، ولكن شوقي خشي منافسة الشاعر العراقي ، فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر في هذا بأخوة الأدب ، وأخوة العرب ، وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ، ووجد السيد عبد المحسن في الأستاذ الإمام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الأستاذ الإمام ... وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ، ولم يستطع أن يتم الحديث ...

لهذا كانت نزوات حافظ تثور على شوقي ، ولهذا كان يناله بقارص الكلم أحياناً في شعره وكثيراً في مجلسه ، ولكنه رحمه الله كان يحب خليل مطران كل الحب ، ويثني عليه كل الثناء ، ذلك لأنهما كانا متوافقان إنسانية وأريحية ، كما كان يثني على أحمد محرم وأحمد الكاشف وأحمد نسيم ويذكرهم بالخير ، فهل كان يبلغ به التهافت بعد ذلك أن يجحد شاعرية شوقي بجانب هؤلاء ...

كلا ! إن حافظاً لم يجحد شوقي من ناحية شاعريته ، ولكنه — كما قلنا — كان يجحده من ناحية إنسانيته ...

نفي شوقي عن مصر ، فشمت فيه أولئك الذين كان يقف في طريقهم . أما حافظ ، فقد جزع عليه غاية الجزع ، واشتد الحنين بشوقي إلى النيل ... فأرسل بهذه الزفرة الحارة :

يا ساكني مصر إنـــا لا نزال على ... عهد الوفاء — وإن غبنا — مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم ... شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !

فأجابه حافظ بتلك الزفرة الصادقة :

عجبت للنيل يدري أن بلبله ... صاد ويسقي ربى مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه ... وقد نأينا ، وإن كنا مقيمينا !

ألا رحم الله الشاعرين الكبيرين ، فقد نأيا عنا بجسمهما ، ولكنهما بيننا ملء السمع والبصر بروحهما وبفنهما ، وكم بيننا من الحاضرين بأجسامهم ، ولكنهم في الغائبين النائين ...

« الجاحظ »

أنوارُ الجحـــيم ...

من عذيري من الهوى والتصابي ... بعد ما أبلت الغواني شبابي ؟
إنني اليوم بين أهلي غريب ... لم أجد لي مواسياً في مصابي
كلما أترع الأسى لي كأساً ... قلت حسبي ما ذقته من عذاب
خطرات في شرة وعرام ... تتنزى ... قد حطمت أعصابي
هي كالنار في الهشيم ... وكالإعـ ... ـصار يجتاح ناضرات الروابي !
غادة تأسر النفوس بدل ... مستبد على النهى غلاب
عشت في ظلها الظليل وأفضت ... بي إليها يوماً مطايا الرغاب
وترشفت من لماها رحيقاً ... قدسياً ما صب في أكواب
أين منه ما أحرزته بنات النـ ... ـحل أو ما عصرت من أعناب ؟
ورأيت الجمال فيها يغني ... وغناء الجمال أصداء غاب
توقظ المغفيات من ذكرياتي ... وتغشي وجوهها بالضباب
في الضحى والمساء أزجي إليها ... صلوات العبيد للأرباب
كطيور قد حلقت ... تتناجى ... بأغاريدها الرقاق العذاب !
كل سرب يمر يتلوه سرب ... والهوى طائر مع الأسراب
يا غناء قد ضاع في تجهم الليـ ... ـل ضياع الوفاء في أصحابي
أنت عندي أشلاء حب عزيز ... دنست طهره معاني التراب
وحطام من ذكريات غوال ... أنا منها في موعد كذاب !
دفنتها الهموم في ظلمة الفكـ ... ـر فلاحت مركومة كالسحاب
ما بقائي وقد مضى أحبابي ... وصحا القلب من خمار الشباب

محمد علي مخلوف

الأدب والفن في أسبوع

شوقي وحافظ :

تقع ذكرى أحمد شوقي أمير الشعراء في هذا الشهر (أكتوبر) فقد توفي في اليوم الرابع عشر من سنة ١٩٣٢ وقد بدا الاهتمام بهذه الذكرى في عدة مظاهر، منها تلك الحفلة التي قالوا إنهم سيقيمونها في (أوبرج) الأهرام، والتي عرف قراء الرسالة أمرها مما كتبناه عنها في عددين ماضيين، وقد علمت أن هذه الحفلة لن تتم على الوضع المزرى الذي رسموه لها، فقد عارض بعض أعضاء اللجنة في ذلك الوضع، وأباه كذلك بعض الشخصيات الكبيرة التي طلب إليها أن تشترك أو تشرف على الحفلة، وقالوا جميعاً كما قلنا إنه لا يليق أن يحتفى بذكرى شوقي احتفاء لاهياً مسمراً (بالأوبرج).

ومن مظاهر الاهتمام بذكرى شوقي، العدد الخاص الذي أصدرته زميلتنا مجلة « الكتاب » وقد جمعت بين ذكرى شوقي وحافظ في هذا العدد، لأنهما توفيا في سنة واحدة إذ كانت وفاة حافظ في اليوم الحادي والعشرين من شهر يولية سنة ١٩٣٢، فتكون قد مضت خمسة عشر عاماً على وفاة الشاعرين اللذين اقترن اسماها في الحياة وفي الخلود.

وقد قصرت « الكتاب » أبوابها على البحث في شعر شوقي وحافظ، والتزمت في كل بحث الموازنة بين الشاعرين في مختلف نواحيهما؛ وقد صدر العدد بفصل للأستاذ عادل الغضبان رئيس التحرير عنوانه « متحف » ذهب فيه إلى أن الشعر، وهو أحد الفنون الجميلة، له كما لها متاحف، وإن كانت قطعه لا تضمها الغرف والأبهاء، وإنما تعرض في « الديوان » فديوان الشاعر هو المتحف الذي يعنيه.

وأخذ الأستاذ في الدلالة على الموسيقى والتصوير في ديواني شوقي وحافظ، فبين الارتباط بين الأصوات والمعاني في قطع من شعرهما، وقد أفرط في ذلك كما صنع في بيت حافظ التالي الذي يصف به هيجان البحر :

عاصف يرتمي وبحر يغير   أنا بالله منهما مستجير

فقد جمل يبين دلالة الحروف على صوت العاصفة ودوى البحر والفزع إلى الله، فقال : « فصوت العاصفة تتخيله الأذن في الصفير المنبعث من اجتماع الصاد والفاء بعد الألف في كلمة (عاصف) ولا فضل للشاعر فيها إلا أنه اختار فأحسن، ورنة الضربة تدوى في المقطع الأخير من (يرتمي) كأنه صدى ثقل من الأثقال ارتطم بألواح السفينة ثم إن هدير الأمواج وهي غائرة تحمله إلى السمع هذه الغين وهذه الياء الممدودة بعدها في كلمة (يغير) فهما صوت البحر الثائر الحائر مثلا يمثل ونغمة الأمل والدعاء تتصاعد من اللام الثانية في كلمة (بالله) ومن حرف المد في كلة (مستجير) ».

وقد أمعن الأستاذ في ذلك حتى خلته يريد أن يجمع خصائص حروف الهجاء في متحف ... وقد ذكرني هذا الصنيع بنادرة يحكونها عن حافظ، إذ قال مرة لأحد علماء الدين : بلغني أن هناك مؤلفاً في « الوضوء » يقع في عدد من المجلدات الضخمة وإنه ليسهل على المرء أن ينغطس في الماء سبع مرات ثم يقوم إلى الصلاة، ولا يتعب نفسه بقراءة هذا الكتاب ! وعلى هذا تستطيع أن تؤكد للأستاذ عادل أنك مقتنع بأن البيت يدل على كل شيء دون حاجة إلى ما أسهب فيه من بيان أصوات الحروف ونغمات المدود ...

وقد أحسن الأستاذ بالاستعانة بريشة الرسام إلى جانب قلمه في تجلية بعض الصور التي اشتمل عليها ديوانا شوقي وحافظ، ولكن الصورة التي رسمت بإزاء بيت حافظ :

واسقنا يا غلام حتى ترانا   لا نطيق الكلام إلا بهمس

لم تكن موفقة، فهي تمثل الشراب والساقي في أزياء من العصور القديمة، وبأيديهم آنية قديمة، كأن قائل البيت أبو نواس لا حافظ إبراهيم، على أن أشخاص الصورة يبدون في غاية الوقار كأنهم في حلقة درس لا في مجلس شراب ..

الآراء القديمة فى شوقى وحافظ :

الأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين بك والأستاذ إسماعيل مظهر والأستاذ محمد توحيد السلحدار بك ، كان لكل منهم رأى قديم فى شعر شوقى وحافظ ، فهل ظلوا على آرائهم أم جلا لهم الزمن آفاقاً جديدة ينفذ فكرهم منها إلى رأى جديد ؟ سألتهم مجلة « الكتاب » هذا السؤال فأجابوا :

قال الدكتور طه إنه لم يغير رأيه فيهما ، ومما قاله عنهما : « وإذا لم يبلغا من التفوق ما كنت أحب لهما وأتمنى للشعر العربى الحديث فقد لا ينبغى أن نلومهما فى ذلك وأن نذكر قول عمرو ابن معدى كرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم   نطقت ولكن الرماح أجرّت

فلم يكن هذان الشاعران إلا مرآتين صادقتين للعصر الذى عاشا فيه ، وقد أديا إلينا ما ألهمهما هذا العصر فأحسنا الأداء » .

ويحضرنى — لذلك — رأى للدكتور طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » مؤداه أننا لا نعد الشاعر شاعراً إلا لأنه يعبر عن بيئته ويصور عصره فيحسن التعبير والتصوير . ورأى الدكتور طه فى شوقى وحافظ أنهما لم يبلغا من الشعر ما يجب . فأى الرأيين ما زال يرى ..؟

ورأى الأستاذ مظهر القديم أن خيال الشاعرين أرضى وأن نزعاتهما أرضية على خلاف طاغور شاعر الألوهية. وقال إنه لا تزال عند هذا الرأى ، وهو يرى أن الشعر ليس اللفظ ولا الوزن ولا القافية ولا الموضوع ولا الأداء ، لأن هذه أعراض ، وإنما الجوهر أثره فى نفسك ، وقليلا ما يخاطب الروح أو النفس شعر شوقى وشعر حافظ ...

ومجمل رأى السلحدار بك الذى نشره منذ تسعة وثلاثين عاما، أنه يرجح كفة حافظ على شوقى ، لأن الأول شاعر الجلال ، والثانى شاعر الجمال، والجلال فوق الجمال؛ ولأن ملكة اللغة العربية كانت راسخة فى حافظ أكثر من رسوخها فى شوقى ؛ ولأن شعر حافظ بما فيه من نفحات القوة والقومية شاف للنفس ، أما شعر شوقى فكان شعر الرفاهة والنعيم ؛ ولأن حافظاً أكثر كناية عن وجدانه فى شئون وطنه ؛ وشوقى أبعد منه عن ذلك . وقال إن الشاعرين قرضا بعد ذلك شعراً كثيراً فى نحو ربع قرن ، وإنه لا يصح الجواب عن السؤال بغير مراجعة هذا الشعر ، ولا تسعد الحال على ذلك إلا فى مدى طويل ، ولكنه مع ذلك يجيب بقوله : « أغلب الظن أن حافظاً ظل يقول أكثر شعره فيما يتعلق بالشئون القومية ، ولم يستمر فى محاولته التخلص من أغلال طريقته القديمة ، أما شوقى فلولا تهكم بعض أئمة الأدب القديم على قصائده فى صباه عقب عودته من أوربة لكان التجديد أظهر فى شعره »

أما الأستاذ العقاد فقد قال إنه دون فى مذكراته اليومية قبل نيف وثلاثين سنة أن اسم الشاعر بلغتنا يشير إلى تعريفه ، فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، وليس بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل ، ولا من يأتى بروائع المجازات وبعيد التصورات ، إنما الشاعر من يشعر ويُشعِر . وكان بهذا القياس يقيس شوقياً وحافظاً ، فقال عن حافظ : « يعجبنى منه ذاك الجلال ، وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سمواً فى الشاعر أو أفضلية لها على شعراء الجمال » إلى أن قال « وأما فيما عدا ذلك فشعر حافظ، كما قال فيه الدكتور شميل — ولم يرد أن يطريه — كالبنيان المرصوص متين لا تجد فيه متهدماً ، فهو يعتمد فى تعبيره على متانة التركيب وجودة الأسلوب أكثر من اعتماده على الابتداع أو الخيال »

— وقال الأستاذ الكبير إنه كان يعيب « رسميات » شوقى دائماً أو تقليدياته . ثم قال إن هذا الرأى فى الشاعرين لم يتغير كثيراً ، ولكنه يرجع فيهما إلى مقاييس أعم وأوسع ، وأجمل هذه المقاييس فى ثلاثة ، أولها أن الشعر قيمة إنسانية وليس بقيمة لسانية ، وثانيها أن القصيدة بنية حية وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد ، وثالثها أن الشعر تعبير وأن الشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس بذى سليقة إنسانية . ثم قال : « وإذا عرضت الشاعرين — شوقياً وحافظاً — على هذه المقاييس الثلاثة صح أن تقول : إن حافظاً أشعر ولكن شوقياً أقدر ، لأن ديوان حافظ هو سجل حياته الباطنة لا مراء . أما ديوان شوقى فهو (كسوة التشريفة) التى يمثل بها الرجل أمام الأنظار »

رأى المازنى :

والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى هو الباقى من نقاد شوقى القدماء ، وقد تنقدته بينهم فى « الكتاب » ولكنى وجدته فى « الهلال » أعنى وجدت مقالا له عن شوقى ، أما هو نفسه فلا أتمثله إلا جالساً إلى مكتبه فى « معمل مقالاته » يكتب .... ويكتب . هذه مقالة لأخبار اليوم ، وثانية للمسامرات ، وثالثة للاثنين ، ورابعة للبلاغ ، وخامسة للمصرى ، و ... الخ ويخيل إلى أنه يكتب مقالات (جاهزة) لتدفع إلى من يطلبها دون انتظار

والمقالة التى كتبها للهلال عن شوقى ، هى وإن كانت من (الموصى عليه) إلا أنها على كل حال من نتاج « المعمل » فهى متأثرة بجوه الذى تسوده سرعة الإنجاز ، فالأستاذ ليس متفرغاً لإنضاج رأى جديد فى شعر شوقى ، بل لتذكر رأيه القديم ... فلا بأس بأن يملأ بعض الصفحات ببعض الحوادث والنوادر التى جرت بينه وبين شوقى ، حتى إذا جد الجد فاقتضى الحال أن يقول شيئاً فى شعر شوقى قال : « وما زال رأيى فى شعره كما كان .. وهو أنه كان فى صدر حياته أشعر منه فى أخرياتها ، ولكنه فى العهد الأخير كان أبلغ عبارة وأعلى بياناً » وليس هذا هو رأيه الذى كان .. لأن المازنى هو أحد أستاذى المذهب الجديد الذى عارض شوقى والذى تراه فى كلام النقاد الأستاذ الآخر للمذهب الحديث. وقال إن شوقى « اقتنع بأن نظم القصائد على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ليس بجدى ، فتحول إلى وضع الروايات الشعرية التمثيلية » فهل وضع الروايات الشعرية يقتضى أن نظم القصائد عبث وباطل ؟ وهل تحول شوقى عن نظم القصائد ؟ والأستاذ نفسه يقول بعد ذلك إنه « لم ينقطع عن نظم القصائد المألوفة » فكيف يتفق هذا وذاك ؟ وقال الأستاذ المازنى إن شوقى مدين لخليل مطران بك لأنه « أول من أدخل شيئاً من التجديد على الشعر فى مصر وتبعه شوقى » وقد أسرف القوم فى الإشادة بتجديد مطران ، وما نراه يفترق كثيراً فى التجديد عن شوقى وطبقته ، بل تجديد شوقى أظهر فى التمثيليات لا من حيث النوع فحسب بل كذلك فى المنحى الشعرى

وبعد فالمازنى رجل له ماضيه فى الأدب ، كما قلت فى مناسبة سابقة ومن حقنا بل من واجبنا ألا نغفله ...

إمارة الشعر :

رأت مجلة « الهلال » بمناسبة ذكرى شوقى أمير الشعراء أن تستفتى القراء فيما يلى :

(١) من هم الشعراء الخمسة الأول بين شعراء العرب الأحياء فى مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن والحجاز ؟

(٢) من هو أجدر الشعراء بلقب الإمارة الآن ؟

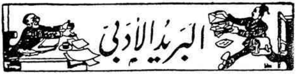
فأولاً — هل إمارة الشعراء منصب شاغر نشعر بضرورة ملئه ؟ وهل دولة الشعر فى حاجة إلى أمير ينظم أمورها ويقوم على شئونها ويحفظ الأمن فى أرجائها ويحمى ثغورها وأطرافها ويدفع عنها وباء الكوليرا .. ؟

لقد كان إطلاق لقب « أمير الشعراء » على شوقى حادثاً فذاً ، لم يسبق له نظير فى تاريخ الشعر العربى رغم أحاديث المجالس التى كان يسأل فيها عن أشعر الشعراء ، ولم يكن أشعر الشعراء إلا قائل بيت أو بيتين أو أبيات وقعت فى نفس المجيب عن السؤال موقعاً حسناً ، على أنه لم يصر لقباً لأحد ، كما أنه ليس لهذا اللقب نظير فيما نعلم من الأمم الأخرى ، وإطلاقه على شوقى كانت الدعاية أهم أسبابه ، فلم نتشبث به الآن ؟

وثانياً — لو سلمنا بلزوم أمير للشعراء ونظرنا فى طريقة استفتاء الهلال فيمن هو أجدر بلقب الإمارة الآن — لوجدنا هذه الطريقة غير سليمة ، لأن الذين سيجيبون الاستفتاء وينتخبون أمير الشعراء أقلهم من يقرأ الشعر ويتذوقه ويعطى (صوته) راشداً ، والأكثرون ليسوا كذلك ، بل منهم من لاحظ له إلا سماع أسماء المشهورين من الشعراء ، فهل تؤدى حكومة هؤلاء ، إلى حكم مقبول ؟ والشعر الآن يتجه اتجاهات جديدة لا يستطيع فهمها وتقديرها إلا خواص الأدباء ، فكيف يحكم فيها عامة القراء ؟

ويأخذ الكثيرون على قانون الانتخاب العام أنه يجعل للأميين حق الانتخاب ، والواقع أن هؤلاء الأميين يستطيعون تقدير كفايات أعضاء البرلمان أكثر مما يستطيع كثير من قراء الصحف والمجلات تقدير الجدارة بلقب أمير الشعراء .

« العباسى »



فرعون :

للكلمة فى الرسالة ٧٤٧ : فرعون بكسر الفاء وفتح العين وبضم الفاء وضم العين ، وبضم الفاء وفتح العين ، وهاتان لغتان نادرتان . والاثنان هو — كما يقول أبو زياد — أو هما — كما يقول أبو الجراح — من حزب همزة الوصل .

(س)

إلى الأستاذ العمارى

قرأت فى العدد ٧٤٣ من الرسالة الغراء كلة قيمة للأستاذ على العمارى بعنوان « شىء من الصراحة » بحث فيها مشكلة الضعف الذى عم الطلاب فى اللغة العربية ، وأسبابه التى أدت إلى التواء ألسنتهم ، والعلاج الذى يراه لهذا الداء الذى يهدد كيان اللغة الوطنية التى نعتز بها .

وإنى أوافقه فيما يراه . ولكن الأستاذ قد ذكر أن « فى مدرسة عالية همها تخريج مدرسين للغة العربية يترك الطلاب كتاب الأشمونى ليقرءوا ملخصاً له وضعه أحد الأساتذة كأنهم فى مدرسة ابتدائية ثم هم يمتحنون فى هذا المختصر »

ولا شك أنه يعنى بهذا « كلية دار العلوم » وأحب أن أبين للأستاذ أن أساتذة دار العلوم مازالوا يشرحون « حاشية الصبان على الأشمونى » ويكلفون الطلاب باستذكارها ، ومعظم أسئلة الامتحان تطبيق على مسائل فى الحاشية .

وإنى إذ أقرر هذه الحقيقة لست ممن يدعو إلى دراسة الحواشى وضياع الوقت فى مناقشات لفظية عقيمة ، فإن قيل إنه لابد من ذلك لكلية اختصت بدراسة اللغة العربية . أجبنا إن أرادوا هذا فليرفعوا عن كاهل الطالب فى دار العلوم ما لا صلة بينه وبين علوم اللغة من مثل « الطبيعة والكيمياء واللغة العبرية ، واللغة الفارسية » لأن لهذه العلوم كليات اختصت بها ، والطالب قد درس ما يكفيه من بعض هذه العلوم فى المرحلة الثانوية.

محمد هاشم عبد الدائم

حول قصيدة :

نشرت « الرسالة » فى عدد مضى مقالة للأستاذ محمد هاشم عطية بعنوان « فى العراق الشقيق » . وفى آخر المقالة قصيدة للأستاذ ألقاها فى الربيع الماضى ترحيباً بالوفد السودانى عند زيارته لبغداد ؛ قال فيها :

واسألوا الدهر والقرون الخوالى ... فسيشهدون أننا أخوان

والبيت مكسور

وتخطر فوق الأصيل نديا ... من نشر الربا وطيب المجانى

والبيت مكسور « وفوق الأصيل » تعبير لا يسوغه الذوق والبيت لا تجمعه مناسبة بين ما قبله وما بعده من الأبيات .

فهنيئاً لكم بما قد حبيتم ... ثمة الشعب وحى هذا الأوان

فقوله « وحى هذا الأوان » تكملة للبيت لا غير دون نظر إلى المعنى أو الأسلوب أو المقام .

ويقول فى تصوير عمل المستعمر بوحدة النيل وعجز ذلك عن التفرقة بين مصر والسودان :

كان منها مكان ناطحة الصخر ... بقرن عضب ورأس هدان

لم يصنع المستعمر شيئاً وكان كناطحة الصخرة الصماء بقرنها ؛ فالشطر الأول قوى وسليم ؛ أما الشطر الثانى فلا أدرى ما فائدته ، فالماشية مثلا تنطح بقرونها ورأسها ، ووصف القرن بعضب والرأس بهدان لا يجدى شيئاً . وشتان بين البيت وقول الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقوله بعد البيت — ببيت واحد — :

تعصف الحادثات من جانبيها ... فى الصفا الصم من ذرى ثهلان

يدل على ضعف قوة هذه الوحدة أمام الحوادث ، وما كان أغناه عن ذلك .

وبعد فليس فى القصيدة إلا الوزن والألفاظ ، وما كان أغنى الأستاذ عن أن يعد نفسه فى زمرة الشعراء .

محمد عبد المنعم خفاجى

مكتبة ونقد :

من محاسن المصادفات أنه فى الوقت الذى كتب فيه الأستاذ (العباس) كلمته اللاذعة من بعض عيوب دار الكتب المصرية

(عدد ٧٤٣) وافانا البريد الأمريكي — ضمن رسائله — بتقرير هام بالنسبة لنا عن مكتبة بلدة أمريكية صغيرة تدعى (دنفر Denver) . ووجه الأهمية في هذا التقرير أنه يوضح لنا بجلاء كيف أمكن لبلدة صغيرة كهذه أن تؤسس لها مكتبة ناجحة ومن ثم يساعدنا على استنتاج أن علة جمود دارنا ونشاط دور الكتب الأمريكية مثلا ليست — كما يعتقد الكثيرون — راجعة إلى الفرق الواضح بين مصر وأمريكا من حيث عدد السكان أو الثروة العامة أو ما شابه ذلك بقدر ما هي راجعة إلى الفرق بين نظام ونظام وبين اتجاه واتجاه .

ذلك لأن مهمة دور الكتب عندهم بصفة إجمالية ليست مجرد « إعارة الكتب » لمن يستطيع أن يستعيرها كما هو حادث لدينا بل تيسير الثقافة بصفة شاملة تيسيراً جدياً ومجدياً للمواطنين جميعاً كباراً وصغاراً على اختلاف ظروفهم وأمزجتهم وحالاتهم المادية والثقافية . بمعنى أن دارنا تعرض كتباً لا يستفيد منها غير الأدباء غالباً بينما دورهم تعرض مراجع من كل لون وفن بحيث يمكن أن يستفيد منها الزارع والموظف والتاجر والتلميذ والكاتب والشاعر والفيلسوف وذو الثقافة المحدودة والمليونير والفقير والرجل والمرأة إلخ . وبمعنى أن دارنا تترك كل فرد لنفسه يتخبط — إن استطاع — في طريقة البحث بينما دورهم تتعاون معهم تعاوناً وثيقاً فتعرفهم طرق التحصيل المثمر كما تنظم مناظرات في كل أنواع « المعرفة » ومحاضرات مشوقة للأطفال وأحاديث مناسبة للسيدات وتصدر نشرات سنوية وأحياناً نصف سنوية عن جهودها ونظمها وتطوراتها وما يوجه إليها من نقد وما تتوخى إصلاحه .. إلخ .

ولعل هذا كله راجع إلى سبب أصيل هو شغفهم — دوننا مع الأسف الشديد — بتثقيف أنفسهم في شتى مرافق الحياة بدليل لا يقبل الجدل وهو أن دورهم لا تعتمد على الحكومة كدارنا بل على المواطنين أنفسهم فهم الذين يتولون وحدهم شؤونها من إنفاق أو إدارة أو إشراف . والنتيجة المنطقية التي لا مناص منها أن نشاطنا الثقافي يخضع حتما للاجراءات الحكومية بقدر ما تسمح به « الميزانية » و « اللوائح » حتى لقد أصبح من الأمور العادية التي نسمعها بغير دهشة أن كتاباً (كالأغاني) مثلا لا تزال بقية من أجزائه « تحت الطبع » بالدار منذ سنوات طويلة ... وكتاباً مثل (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لا يزال دون طبع إطلاقاً فيما عدا جزءاً واحداً منه ... وكم من كتب قيمة لم تطبع بعد أو لم تجلد بعد أو لم تصحح بعد وهكذا !

يمكن أن يقال إذن أن معظم الفرق بيننا وبينهم بهذا الصدد لا يمت إلى اختلاف عدد السكان أو الثروة العامة أو نحو ذلك بصلة كبيرة . وإلا فإنه من غير المعقول أن تقارن — من هذه النواحي — بين عاصمة عظيمة كالقاهرة وبلدة صغيرة جداً مثل (دنفر) فهذه بلدة لا يكاد يدرى بها أحد إذ لا يزيد تعدادها الآن عن ١٥٨٠٠٠ نسمة وليس لها ميزة معينة ولا شهرة خاصة ورغم هذا فقد استطاعت مكتبتها — حسب ما جاء بالتقرير الذي أسلفت الإشارة إليه — في فترة قدرها حوالى ٤٠ سنة بعد إنشائها أن تمحو الأمية والجهالة من البلدة وضواحيها محواً تاماً ولا تزال عاملة إلى الآن على نشر المزيد من الثقافة والمعرفة بمنتهى الجد والنشاط . ويكفي شاهداً على مقدار تقدمها أن كل ثروتها عند افتتاحها عام ١٨٤٢ كانت ٣٥ مجلداً فبلغت اليوم ٥٠٠٫٠٠٠ مجلد تقريباً أي ما يعادل ثلاثة أمثال عدد المواطنين جميعاً .

وليست العبرة بكثرة ما في المكتبات من مجلدات وإنما بمقدار تداولها والاستفادة منها طبعاً .. ولهذا نجد أن أهم الأقسام في هذه المكتبة وأضخمها جهداً هو قسم التوزيع كما نجد أن أبرع أعماله هو توصيل الكتب بواسطة سيارات معدة لهذا الغرض إلى القاطنين في الضواحي أو القرى المجاورة وإلى الفلاحين في مزارعهم وإلى العمال في مصانعهم وإلى المرضى في المستشفيات ... إلخ . وعلى ذلك يندر — كما يؤيد التقرير — أن تدخل منزلا هناك دون أن تجد في أوقات الفراغ رب البيت يقرأ ما يزيده خبرة أو متعة .. وربة البيت تقلب بين يديها (كتالوجات) عن فنون الطهي وألوان الطعام .. والأطفال يستمتعون بكتب مزدانة بصور هزلية طريفة ترمز إلى معان مختلفة .. والخدم يطالعون قصصاً وإرشادات صحية . ونحو ذلك .

ومن طريف ما يذكر عن هذه المكتبة أن أغلب وظائفها — كمعظم المكتبات الأمريكية — مقصورة على النساء ولهن نصف كراسي المجالس العليا التي تتولى الإشراف عليها وكثيراً ما يظفرن بكرسي الرياسة !!

عبد الفتاح البارودي



كتاب « الله »

(تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد)

بقلم الأستاذ محمود عماد

حاولت أكثر من مرة أن أكتب كلمة عن كتاب (الله) ولكنى ما كنت أهم حتى أحجم . لأن غرض الكتابة لا يعدو تقديم المؤلف ، أو تقديم الكتاب . أما المؤلف فهو غنى عن التقديم لأنه (العقاد) ، وأما الكتاب فأنى أرى كل تقديم له تأخيراً . اذ هو ليس من الكتب التى تلم بها الكلمة العابرة ، وتضع منها أمام القارىء صورة مصغرة .

وإذا كانت كل أوراق مغلفة تسمى كتاباً ، فأن هذه الأوراق شيء أجل من كتاب . إنها حادثة من حوادث القلم التى لا تقع فى عالم التأليف إلا فى آماد متباعدة .

ولو أن هذا الكتاب ظهر فى بلاد غير مصر لكان له فيها دوى يزلزل آلاف الكتب عن رفوفها . ولكنه ظهر فى مصر فكان حسبه أن يجد له بين كل ألف رف مكاناً واحداً ، وأن يكون هذا المكان هو أهدأ أمكنة المكتبة حركة ، حتى يأذن الله فيقيض له مترجماً يترجمه إلى لغة أجنبية . عند ذلك يحدث الدوى ، وتكون الزلزلة . اذ يرى فيه العالم أول كتاب تقصى تاريخ العقيدة البشرية ، من عهد الطوطمية إلى عهد التوحيد ، مستهديا بالعلم والفلسفة والألهام ، مذ طور الخلية حتى طور العقل

وهى رحلة طويلة شاقة إلا على قلم رحال متقص كقلم العقاد الذى عقد فى فناء كتابه مؤتمراً من فلاسفة الأمم ، شرقيها وغربيها ، قديمها وحديثها ، تبوأ فيهم العقاد مكان الصدارة ، وأخذ يناقش كل فيلسوف رأيه ، نقاش الخبير بكل رأى ، فيخذل هذا حتى لا يجد له من ناصر ، وينصر ذاك حتى لا يتصدى له خاذل . ثم يخلص إلى رأيه الخاص ، يطالعك به واضحاً مشرقاً كالشمس تخلصت من السحب ، فى عبارة غنية ، وحجة حاسمة ، ومنطق مستقيم . وهى صفات التفوق .

قلت إن كتاب (الله) لا يلخص ، ولكنه يقرأ .

فليقرأه من يريد أن يعتز بالعبقرية الشرقية ، والبيان العربى .

وما كتبت هذه الكلمة تقديماً للكتاب ، ولكن لأجد بها فرجة فى جو (الرسالة) الفسيح من شعور مكبوت يغالبنى منذ قرأته . بل هو يغالبنى كلما قرأت محضر ساعة من ساعات العقاد التى يجلسها بين كتبه . تلك الساعات الحافلة التى أقول فيها بحق :

عباس طرت إلى السماء   وامست ذرات الضياء
ونفذت قبل إلى طبا   ق الأرض من يبس وماء
لم تحتجب عنك الكثا   فة ، لا ولا دق الصفاء
أفأنت روح خالص   أم أنت سر الكهرباء ؟
كلا ، فأنك مثل هذ   ا الناس محدود البناء
يعروك ما يعروهمو   من راحة أو من عناء
فيم اهتديت إلى الذى   ضلوا واحصيت الخفاء ؟
هذا بأنك شاعر   والشعر يعرف ما يشاء
والشعر يبدو فى النظ   يم أو النثير على السواء
ساعاتك الغر السوا   ع من نفاذ وامتلاء
جثم الزمان بها كما   جلس الوليد القرفصاء
وتحدثت فيها الحيا   ة بغير لبس والتواء
أكبر بساعتك التى   وسعت نواميس البقاء
فى أى حجم صيغ (عقر   بها) وفى أى استواء ؟
أتراه فوق الأرض ركب   أم على وجه السماء ؟
يا ليته قيست به   أعمارنا قبل الفناء
فاذا بها تصفو كأعما   ر النجوم على الفضاء

محمود عماد



قصة تاريخية :

الجزاء !!

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

قال موسى بن نصير : « إنها يا صاحبي محنة أحاطت بي من كل جانب ، ولقد بلغ عنت الخليفة بها فوق طاقتي ، وفوق ما يحتمل الرجل الحر الكريم . عزلني من كل أعمالي فأذعنت ، وجردني من كل مالي فخضعت ، واتهمني بالغدر والخيانة في مال المسلمين فصبرت ، وأهانني ... أجل ! أهانني فاحتملت الإهانة بالتوجه إلى الله تعالى أن يثيبني عليها ثواب الصابرين ، وإن رجائي في الله العظيم ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد فرض عليّ الخليفة غرماً باهظاً من المال لا أملك منه درهماً واحداً ، ثم كانت الداهية الدهياء ، فإنه يطلبني اليوم ليجز رأسي بالسيف وقد جئت إليك وأنا بين شقي الرحى ... »

« وا أسفاه أيها الصديق ، أيكون هذا جزائي من خليفة المسلمين ومنزلتي في القوم بعد أن بذلت ما بذلت من دمي وجهدي ، وخضت المعارك وروحي على يدي حتى فتحت تلك الفتوح المظيمة وضممت الأقطار الشاسعة إلى دولة الخلافة ؟ ! لقد طلعت بدعوة الإسلام على الملوك من مغرب الشمس وكانوا لا يعرفون مكانها إلا في الشرق ، ولقد وقفت بلواء الخلافة في صميم أوربا وهجمت على ملوكها في عقد دارهم ولولا أن استرجعني الخليفة الوليد بن عبدالملك لبلغت في ذلك النهاية ، وبسيفي جلبت إلى ساحة الخلافة كل ما جمع الملوك على طول السنين من النفائس والثروات ، وما حشدوا من العديد والعدات ، ثم أرى هذا كله يطوى في مطاوي الجحود والنكران ، وتذهب به دسيسة رخيصة من كاشح حقود ، أو عدو كنود ؟ ! »

« اسمع لي أيها الصديق ، فإنه ليس شأني ولكنه خطر يتهدد سمعة الخلافة ويقف في طريق الفتح الإسلامي ، فلن يقدم قائد بعد اليوم كما أقدمت في فتح الفتوح ما دام الجزاء كما ترى ، ولو أني أعرف في جهادي وفي تصرفاتي شبهة أستحق عليها اللوم أو نقصاً يوجب المؤاخذة لأسلمت عنقي لسيف الجلاد راضياً مطمئناً قبل أن أسمع قضاء الخليفة عليّ بذلك ، فأنا كما تعرف لست بالرجل الجبان ، ونحن رجال السيف ، لا نقدر طول الحياة بطول أيامها ولا نحرص عليها لما فيها من المفاتن والزينة والراحة والرفاهية ، وإنما هي حياتنا تقدر بالأعمال العظيمة ، ونمضي فيها على الخروج من شدة لمواجهة شدة أقسى وأصعب ، وإني على ثقة من طهارة صحيفتي وبراءة ذمتي ، وسأقف بين يدي الله وكتابي بيميني في صفوف المجاهدين الأبرار ، ولكني أطمع أن لا أخرج حتى أرى صحيفتي بيضاء أمام الناس وأمام التاريخ ... »

« رحماك يا صاحبي ، لقد شمت بي العدو ، وفرح في العاذل ، وطمع في من لا يدفع عن نفسه ، وتوجع لي الصديق ، وفجع بفاجعتي الأهل والولد ، وإني لأعرف منزلتك من سليمان بن عبد الملك ، وأقدر فيك الشهامة والمروءة ، وأعتز بحرمتي عندك فبك أستجير من بطشه ، وألجأ إليك في تخليص عنقي وتطهير سمعتي ، ورفع ذلك الغرم الثقيل الذي سيضطرني إلى التكفف وسؤال العرب في تحمله عني ، وهل تحسبني أحتمل الحياة وأنا أرى كرامتي تبتذل بالسؤال والتكفف ؟ »

قال يزيد بن المهلب : « هون عليك أيها الصديق ، فإنها سحابة صيف عن قريب تقشع ، وما أنت في محنتك بأول مثل بين الناس ولا بآخر مثل سيكون بين الناس ، فهكذا الأمر في صحبة الملوك ، وقديماً قيل : إن صاحب السلطان كراكب البحر إن نجا من الغرق لم ينج من الخوف ، وإني لأعرف في سليمان بن عبد الملك العناد والإصرار على الرأي ، ولكني باذل جهدي عنده ، وثق أنها ذمة العرب لا نخفرها أبداً ، وعهد الآباء لا نخونه ولو طاح العنق ، ولقد نزلت بساحتي ، فإني شريكك فيما تعاني من محنة ، وإني لأضع نفسي وولدي ومالي بين يدي الخليفة افتداء لك ، وأنت آمن في جواري إن شاء الله »

قال موسى : « إنها يد أحفظها لك ، ومروءة أقدرها فيك

وإني على يقين من نجح مسعاك ، لما أعرفه من منزلتك عند الخليفة وقربك من قلبه واحترام رأيك عنده ، والخير في التعجيل »

قال زيد : « ما كنت أنتظر حتى تتحدث إليَّ في شأنك فقد كنت أتحدث اليوم إلى الخليفة في هذا الشأن ، وإني لذاهب لساعتي لأعاود معه الحديث ، وسأخبره أنك استجرت بي ونزلت بساحتي وأني قد أجرتك وتحملت عنك ، ولكن ماذا أقول لك ؟ لقد سقطت في تبصر الأمر سقطة هي التي جبلت عليك كل هذا فقد كنت تعرف أن سليمان بن عبد الملك كان ولي العهد لأخيه الوليد بن عبد الملك ، وأن الوليد كان قد بلغ الغاية في حياته ، يتوقع الناس له الخروج من الدنيا بين كل صباح ومساء ، ولكنك وقفت على الولاء له ، والارتفاع بمكانته ، وأمهلك سليمان على أن تكون له يوم يجلس لشئون المسلمين وأن تدخر الفخر بفتوحاتك الكبيرة لعهده فأبيت ، فأحفظته بهذا عليك ، ولم تقصر في العناد معه مما مكن للحقد في قلبه ، على أنك من ناحية أخرى قد أغضبت مملوكك طارقاً بن زياد يوم صفعته بالسوط ، فكان بالوقيعة بك عند سليمان »

قال موسى : « مهلا يا صاحبي ، فليس هذا وقت تعديد ولا تأنيب ، لقد كنت أعلم الأمر فيما أوضحت ، وكنت أعرف أن شمس الغد ستشرق على سليمان في أبهة الخلافة والأخذ بالسلطان على المسلمين ، ولكني أعرف أيضاً أن من الواجب علينا أن نقدر لكل إنسان يومه ، وأن نحترم لكل سلطان عهده ، وليس من الحق في الإسلام ولا من الخير للمسلمين وجماعتهم أن نضع المصالح العامة موضع الزلفى للأهواء والأعراض ، وليس من اللياقة أن نجلس مع الوريث نرتب شأن التركة وصاحب المال حيٌّ يتنفس ! ! كان ذلك رأيي حتى لا أتهم بالضعف في خلقي ورجولتي ، وهبني أخطأت ، فما أنا بمعصوم »

قال زيد : « إني ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تأنيباً وإنما قصدت أن أكشف لك عن السر وأن أرى ما عندك » .

فتململ موسى في مكانه ، وجرض بريقه على غصص ، ثم قال : ترى ما عندي ؟ وماذا تحسب أن يكون عندي وأنا على هذه الحال ؟ إن الإنسان ليرى الرأي القويم السديد في شأن غيره أما في شأنه هو فإنه يرتبك ويتبلد حتى لا يدري مصدر الأمر من مورده ، فما ظنك بي وأنا رجل اعتدت طول حياتي أن أفكر في شئون الحرب والفتح ، وفي شئون من هم تحت طاعتي من الجند وحولي من الأعوان ، ولم أكن أجد الفرصة التي أفكر فيها لنفسي ، فلا تسألني الرأي فأني لا أملك الآن ميزانه ، وقديماً قالوا : إن من الحزم في الرأي أن يكون ميزاناً لا يزن كاملا لناقص ولا ناقصاً لكامل ... » .

قال زيد : « إني لم أزل أسمع أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ، وأبصرهم بطبائع أهل السلطان ، وأقدرهم على مداورة الدنيا والتصريف لأحداث الحياة ونوازل الدهر ، وإني والله لأعجب منك كيف وقعت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، ومددت بينك وبين هؤلاء القوم الأقطار الشاسعة والبحار الزاخرة ، وتيقنت بعد المرام عليهم واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها وبسطت سلطانك عليها ، وجعلت الإدارة فيها لولدك وهم طوع يمينك ، ثم ملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع لكنت اليوم على رأس دولة يتعاظمون هيبتها وخطرها ، وما انتهى بك الأمر إلى هذه الحال فتضع عنقك في يد من لا يرحمك ! ألا ليتك والله فعلتها يا أخي ! »

فصاح موسى من قرارة نفسه : « كلا ، كلا ، الويل لي لو فعلتها ! والويل لي لو فعلتها !! وهل كنت تحسبني يا فتى المهلب أروم خطة لنفسي أو أبني دولة لولدي ، ألا بعداً لي من رحمة الله إن هجس هذا الخاطر بقلبي مرة ، ألا سحقاً لي لو نزعت إلى هذه الشنعاء ، وشققت عصا الطاعة على خلافة الإسلام ، وشطرت الأمر في الحكم إلى شطرين ، يقف كل من صاحبه بالمرصاد ، فما هي إلا مراوغات ومصاولات حتى ينقض الأمر من أساسه ، ويذهب سلطان الدين ، وتدول دولة المسلمين ، فالويل لمن يفعلها فيفتح باب الطريق إلى الهلاك والفناء ... يا ابن المهلب : إنها كلمة الله كنت أسير بها في الآفاق ، وأمهد بها لسلطان الإسلام ، وأقوي بها رابطة المسلمين ، وأمكن بها لنفوذ الخلافة وهيبتها ، وما كنت أرجو من وراء ذلك مكانة زائفة ومنزلة زائلة ، ولكني كنت أطمع فيما هو أعلى وأعظم ، كنت أطمع في ثواب المجاهدين عند الله ، وما أحسبه سيحرمني من الجزاء وإن حرمته عند صاحب السلطان » .

قال زيد : « طوبى لك يا ابن نصير ، فاطمئن في مكانك وإني

لقاصد إلى الخليفة فى شأنك ، ثم عائد إليك » .

***

ورجع يزيد بعد أن تكلم مع الخليفة فى شأن صاحبه ، رجع وعلى شفتيه كلام ، وبين جوانحه هم ممض ، وكان صاحبه فى انتظاره على أحر من الجمر ، وجلس الصديقان متقابلين ، يريد موسى من صاحبه أن يتكلم ، ويريد صاحبه ألا يتكلم ...

ومضت فترة كأنها الدهر ، ثم انفرجت شفتا يزيد عن صوت خافت يقول : « لا عليك يا صاحبى فإن الله يتولاك فيما بقى ، ويعلم الله أنى بذلت ما فى طاقتى وأكبر مما فى طاقتى ، وقدمت نفسى ومالى فداء لك عند سليمان ، وإنى فى ذلك لصادق ، وأعلمته أنك نزلت بجوارى ولذت بكنفى واستجرت بحماى وهو يعرف ذمة العرب فى ذلك ، ولكن غضب الملوك أعمى ، قد يحتدم عن غير سبب ، ويمضى إلى النهاية لا يقف به سبب ، ولقد أصر سليمان على موقفه منك ، وأصررت على موقفى منه ، وما زلت به حتى وهبنى دمك وحياتك ، ورضى بأن يرفع السيف عن عنقك ، ولكنه أبى أن يخفف العذاب عنك وأن يكف الإهانة والتشهير بك حتى تدفع ما فرضه عليك من الغرم كاملا غير منقوص ، وترد إليك ما أخذت من مال المسلمين كما زعم » .

فصاح موسى صيحة مغيظة : « أوهكذا صنع ، أو هكذا أبى وأصر ؟! إنا لله ، أف لها من دنيا تافهة وحياة رخيصة ذليلة ، بل أف لجبابرة الملوك ، ما أغدر وما أخون ، بل ما أصغر وما أحقر وهبنى يا صاحبى أذنبت ، وجئت بالشنعاء التى لا تجوز ، فأى رجل هذا الذى لا يسعنى بحلمه وهو الذى يسع الخلائق بحكمه ، ألا ليتنى صرت إلى باطن الأرض قبل اليوم ، ولعل الله منّ على بطعنة فارس فى حومة الوغى فصرعت مصرع الأبطال ، ولكنه قدّر على كل هذا العناء ..»

« رحماك يا فتى المهلب ، وإنى لشاكر لك مسعاك ، وحافظ يدك الغامرة ، فقد أوفيت لى بحق المروءة ، ونهضت نحوى بعهد العرب وذمتهم ، ولكنها لحاجة منى ، والمكروب لجوج ، والنفس فى حومة الأسى لا يربطها تفكير ولا رأى ، وماذا تحسبنى بمستطيع أن أصنع ، وليس فى يدى شىء من المال ، وليس لى فى العرب القبيل الذى يحمل عنى ذلك الغرم الفادح ؟ »

قال يزيد : « إنى لأعرف ذلك ، وإنه ليكرب نفسى ، ولقد مررت فى عودتى إليك من عند الخليفة بأحياء العرب وتحدثت إليهم فى الأمر ، فتحملت عنك « لخم » تسعين ألفاً ذهباً ، ووهبتك من مالى ما زاد على النفقة ، ودفعت بذلك إلى الخليفة حتى يرفع عنك العذاب والإهانة انتظاراً لوفاء ما بقى من الغرم المفروض ، وما أحسب أن رؤساء العرب سيردونك إذا قصدتهم وهم الذين يعرفون لك ما أسديت فى الفتح والجهاد ، والله يتولاك فى كشف هذه الغمرة ... » .

وسمع موسى من صاحبه ما تكلم به ، فلم يرد بكلمة ، ولم يزد على أن تمتم تمتمة غير مفهومة ، ثم صعّد من أعماق نفسه آهة محترقة .

***

وأصبح الصباح على موسى بن نصير ، وهو يطوف بالقبائل ، ويتنقل بين أحياء العرب ، ومعه جند الخليفة والموكلون بتعذيبه ، وذلك نفس القائد العظيم الذى فتح الأمصار ودوخ الأقطار ووقف بكلمة الإسلام فى قلب أوروبا حتى بلغت به الحال أن يسأل الناس ما ينجى به نفسه ويخفف من العذاب فى جسمه .. قال غلامه الذى وفى له من دون الناس ، ولازمه فى حالى نعمته ونقمته : « لقد كنت أطوف مع الأمير موسى بن نصير فى أيام محنته على العرب ، فواحد يجيبنا وآخر يحتجب عنا ، وربما دفع إلينا الدرهم والدرهمين رحمة بنا فكان الأمير يفرح بذلك ... ولقد كنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ الأسلاب من قصور الإفرنج وخزائن الملوك فنفصل منها ما يكون فيها من الذهب وأشباهه ونرمى به ، ولا نأخذ إلا الدر الفاخر .. ولقد رأيت الناس جميعهم يتحرقون على أن يكونوا فى خدمة الأمير أيام دولته ، ثم رأيتهم ينفضون عنه جميعهم أيام محنته .. ولقد نزلنا بوادى القرى نسأل العرب ، فعزم رجل كان من قبل فى خدمة الأمير على أن يسلمه لحتفه ، ففطن لذلك الأمير ، فذلّ له ، وقال : يا فلان : أتسلمنى فى هذه الحال ؟ فقال له اللئيم : « لقد أسلمك خالقك ومالكك الذى هو أرحم الراحمين » ، فدمعت عينا الأمير ، وجعل يرفعهما إلى السماء ضارعاً خاشعاً وهو يزم شفتيه ويتمتم بكلمات غير مفهومة فما سفرت تلك الليلة القاسية الحالكة إلا عن قبض روحه » ..

محمد فهمى عبد اللطيف

مطبعة الرسالة